الاعتبار في القرآن الكريم – دراسة دلالية

إعداد

محمد بن دهلوس علي الرويلي

المشرف

الأستاذ الدكتور أحمد خالد شكري

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في

التفسير وعلوم القرآن

كلية الدراسات العليا

الجامعة الأردنية

تعتمد كلية الدراسات العليا
هذه النسخة من الرسالة
التوقيع.....التاريخ.....

تموز، 2015

قرار لجنة المناقشة

نوقشت هذه الرسالة وهي بعنوان "الاعتبار في القرآن الكريم – دراسة دلالية"

بتاريخ ٢٠١٥/٧/٧ وأجيزت

أعضاء لجنة المناقشة		التوقيع
الدكتور أحمد خالد شكري	مشرفا ورئيسا	
أستاذ – أصول الدين		
الدكتور سليمان محمد الدقور	عضواً	
أستاذ مشارك – أصول الدين		
الدكتور عبد الله أحمد الزيوت	عضواً	
أستاذ مشارك – أصول الدين		
الدكتور عماد عبد الكريم خصاونة	عضواً	
أستاذ مشارك – جامعة آل البيت		

تعتمد كلية الدراسات العليا
هذه النسخة من الرسالة
التوقيع..... التاريخ.....

الإهداء

اهدي هذا العمل

الى عائلتي

الى والدي رحمه الله الذي احسن تربيتي ، والى والدتي التي غمرتي بحنانها ووفقت بدعائها ، والى زوجتي التي شجعتني لإكمال دراستي

الى اساتذتي

الى علمائي الذين استفدت منهم كثيراً حيث كان لهم الفضل بعد الله في تعلمنا وحثنا على الاجتهاد وبذل المزيد من العلم مما نتج عنه هذا العمل الذي بين ايديكم .

الى اصدقائي

الى من غمروني بفضلهم بسؤال عني الى من كان لهم دور في دراستي اما بالتوجيه او التشجيع .

اهديهم هذا العمل الذي اسأل الله ان ينفع به .

الشكر والتقدير

أشكر الاستاذ الدكتور أحمد شكري الذي كان له بالغ الأثر في إنهاء هذا البحث، وعلى كل ما قدم لي من توجيه وتصويب ومتابعة ومراجعة، كما اشكر لجنة المناقشة الموقر لقبولها مناقشة هذه الأطروحة، فلهم مني الدعاء بأن يجزل لهم المولى عز وجل الأجر والمثوبة وأن ينفع بعلمهم ويعلو شأنهم.

قائمة المحتويات

الموضوع	الصفحة
قرار لجنة المناقشة	ب
الإهداء	ج
الشكر والتقدير	د
فهرس المحتويات	هـ
الملخص باللغة العربية	و
المقدمة	1
مشكلة الدراسة	1
أهمية الدراسة	1
أهداف الدراسة	2
الدراسات السابقة	2
الفصل الأول: الاعتبار ومقارباته- دراسة المفهوم	
تعريف الاعتبار واستعمالاته في القرآن الكريم	4
التذكرة وعلاقتها الدلالية بالاعتبار	11
الموعظة وعلاقتها الدلالية بالاعتبار	24
دلالة الفكر وعلاقتها الدلالية بالاعتبار	32
العاقبة وعلاقتها الدلالية بالاعتبار	41
التدبر وعلاقته الدلالية بالاعتبار	50
الفصل الثاني: دلالة لفظ الاعتبار في الآيات القرآنية – دراسة سياقية	
دلالة الاعتبار في سياق القصة القرآنية	56
دلالات الاعتبار في سياق آيات القتال	82
دلالة الاعتبار في سياق الآيات الكونية	94
دلالة الاعتبار في سياق آيات الخلق	115
الخاتمة	129
المراجع	131
الملخص باللغة الإنجليزية	136

الاعتبار في القرآن الكريم – دراسة دلالية

إعداد
محمد بن دهلوس علي الرويلي

المشرف
الأستاذ الدكتور أحمد خالد شكري

الملخص

تتناول الدراسة دلالة الاعتبار في القرآن الكريم، من خلال دراسة المعنى المتعلق بالاعتبار في اللغة، وكذلك استعمالات دلالته في القرآن، حيث أن الدلالة لها عدة معان، كما أن هذه الدراسة تبحث في مقاربات دلالة الاعتبار في الالفاظ ذات الصلة به، ومدى علاقتها بالاعتبار، واستنباط شواهد هذه العلاقة في سياقها القرآني، ومن ثم تبحث الدراسة في السياقات التي جاء فيها طلب الاعتبار، حيث أن طلب الاعتبار في القرآن جاء في أربعة سياقات، هي: القصص، وآيات القتال، والأنعام، والآيات الكونية. وتناولت الدراسة هذا الجانب من خلال بيان المفهوم، وبيان المواطن الاعتبار في هذه السياقات وذكر الشواهد القرآنية عليها. حيث قام الباحث بتقسيم هذا البحث الى فصلين:

الفصل الأول: وفيه ستة مباحث وكانت تتناول البحث في دلالة الاعتبار من خلال بيان مفهومها، حيث تم استقصاء جميع ما ذكره أهل اللغة في بيان معناها، والمراد منها من خلال تطورها الدلالي سواء كان ذلك على الحقيقة أو المجاز. وتناولت بقية المباحث الأخرى بيان الالفاظ التي لها صلة بالاعتبار وبيان دلالتها من خلال البحث في دلالاتها في اللغة، والبحث كذلك في علاقتها به من خلال سياقها في الآيات التي تناولت هذه الدلالات ومدى علاقتها في الاعتبار.

الفصل الثاني: وكان للدراسة السياقية لدلالة الاعتبار من خلال بيان السياقات التي جاء فيها طلب الاعتبار وكانت في أربعة مباحث بحسب السياقات التي جاءت فيها دلالة الاعتبار وهي القصة القرآنية، وآيات القتال، وسياق الآيات الكونية، وآيات الخلق، وقد تناول كل مبحث المفهوم والدلالة السياقية لها.

وقد خلصت هذه الدراسة الى عدد من النتائج والتوصيات تمثلت في بيان مفهوم دلالة الاعتبار واستعمالاتها في القرآن، ومدى مقاربتها الدلالية من الالفاظ ذات الصلة بها، وذكر المواطن التي طلب الاعتبار بها من خلال السياق القرآني.

مقدمـة

الحمد لله الذي أنزل على عبدة الكتاب ولم يجعل له عوجا، والحمد لله الذي جعل ما فيه نذيراً لنا، ليزيل به غفلتنا، ويهدينا الى رشدنا وقوامنا، فكان فيه التذكير، وجاءنا فيه النذير، والحمد لله أن وقانا به من شر أنفسنا وشر الشيطان، وشفى صدورنا وعافا أبداننا وأزال شقاءنا بتلاوته، والصلاة والسلام على البشير النذير والسراج المنير نبينا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

أما بعد

لقد أنزل الله القرآن الكريم للناس، ليكون هو المنهج الأساسي الذي تسير عليه حياتهم، لأنه صالح لكل زمان ومكان، ولم يكن موجهاً الى فئة معينة من الناس، بل جاء عاماً، وشاملاً لكل البشرية، لما يحمله من هداية وتوجيهات، ولا يمكننا الحصول على هذه الهداية أو أن نستفيد من هذه التوجيهات دون اعتبارنا بما جاء فيه، ومعرفة الدلالات التي تدعو اليه. من خلال تدبرنا لمواعظه التي وعظنا بها ليدفعنا ذلك الى الاعتبار بكل ما جاء به. فالقرآن الكريم عندما يعرض علينا القصص، أو يلفت أنظارنا الى ما حولنا من آيات في هذا الكون، أو عندما يطلب منا النظر في أنفسنا والتدبر في خلقنا، أو خلق ما يحيط بنا، نجد أننا مطالبون في تدبر كل ما جاء فيه حيث قال تعالى: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[محمد: 24] لأن القرآن الكريم منهج حياة يجب علينا أن نحيا به، ونموت على منهجه، ولا يمكن لنا ذلك إلا من خلال. فكان هذا دافعاً لي للبحث في دلالة الاعتبار والدلالات التي تدل عليه من خلال الالفاظ ذات الصلة به. وهذا ما تتناوله هذه الدراسة.

مشكلة الدراسة:

تطرح الدراسة التساؤلات التالية:

1- ما المقصود بالاعتبار وماهي استعمالاته في القرآن الكريم؟

2- هل هناك الفاظ قريبة منه، وما علاقتها به؟

3- ما دلالات الاعتبار التي جاءت في السياق؟

أهمية الدراسة:

تكمن أهمية الدراسة في أنها توضح للقارئ الكريم ما المقصود من الاعتبار بتعدد دلالاته التي وردت في القرآن الكريم، حيث أن هذه الدلالات هي الأساس في فهم المعنى القرآني في السياق. كما أنها توضح الالفاظ ذات الصلة بالاعتبار ومدلولاتها على الاعتبار، كما تبرز هذه الدراسة أهمية التحليل الدلالي في أنه لا يتوقف عند البحث في دلالة المفردة القرآنية من الناحية اللغوية، ولا حتى عند البحث عن معناها في السياق القرآني، ولكنه يتجاوز ذلك الى البحث عن معانيها المستمدة من نظام العلاقات الذي يحكمها. فيساعد ذلك على معرفة مواطن العبرة والاستفادة منها عند قراءة القرآن الكريم.

أهداف الدراسة:

1- بيان مفهوم الاعتبار واستعمالاته في القرآن الكريم.

2- بيان الالفاظ ذات الصلة بالاعتبار في القرآن ومدى علاقتها الدلالية به.

3- توضيح دلالة الاعتبار التي وردت في السياق القرآني

الدراسات السابقة:

من خلال استعراض الدراسات السابقة وجد الباحث أن هناك ثلاث دراسات تطرقت لموضوع الاعتبار وهي على النحو الآتي:

أجرى (خفاجي، 2011) دراسة بعنوان الاعتبار في القرآن الكريم، وتناولت الدراسة بيان أن الانسان خلق لعبادة الله اعتباراً بما وهبه الله من النعم إلا إن بعض الناس خالفوا هذا الأمر سلبوا الحق، وأن هذا السلب لم يكن بأخذ السمع والبصر بل كان بسلب الإرادة من الاعتبار بالعبر التي تمر بهم، وبين معنى الاعتبار بربطه بالعبرة التي عرفها بأنها البيان واستشهد بالآيات التي أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يبين لهم ما نزل اليهم، وقسم العبرة الى معبِّر وهو المتكلم والمعتبر وهو المتلقي وعرف الاعتبار أنه التدبر والنظر في غلة ثبوت الحكم وقد ناقش هذا التعريف ورد عليه من عدة وجوه.

وقامت (صباغ، 1428) بدراسة بعنوان العبرة في قصة يوسف عليه السلام، وقد تناولت الدراسة العبر والدروس المستفادة من القصة، وما تعرض له من ابتلاءات والصبر عليها، وبيان كذلك العبر في التوكل على الله عند يعقوب عليه السلام.

وأجرى(عدوي، 1979) دراسة بعنوان العبرة من قصة موسى عليه السلام، وتناول فيها تعريق العبرة، ومفهوم القصة القرآنية، وثم بيان العبر في قصة موسى عليه السلام من خلال القصص القرآني في العهد المكي والعهد المدني وبيان أن لكل عهد قصصه المتعلقة بدعوة النبي صلى الله عليه وسلم.

وتأتي هذه الدراسة استكمالاً للدراسات السابقة، ولكنها تختلف عنها من ناحية تناولها للدلالات المتعلقة بالاعتبار من خلال دراسة المعنى لغوياً وسياقياً، وبيان الالفاظ ذات الصلة بالاعتبار وعلاقتها الدلالية به، ودراسة السياقات التي جاء فيها طلب الاعتبار.

منهج البحث:

سوف يستخدم الباحث في هذه الدراسة المنهج الاستقرائي الاستنباطي، حيث يقوم الباحث باستقراء الآيات التي تناولت الاعتبار في القرآن الكريم، وثم يقوم الباحث بحصر جميع الآيات موطن الشاهد فيما يتعلق بالدلالات الدالة على الاعتبار سواء من ناحية الاستعمال أو علاقتها مع الالفاظ القريبة من الاعتبار، واستنباط دلالات الاعتبار في السياق القرآني، والاستشهاد على ذلك بالآيات التي دلت عليه. ومن ثم استقراء أقوال العلماء في مواطن الاستشهاد على دلالة الاعتبار، وعلاقتها بالألفاظ القريبة منه. وكل ما يتعلق في المسائل التي هي موضوع الدراسة، والتتبع لما يعرض لها.

حدود الدراسة:

تتحدد الدراسة بدراسة معنى الاعتبار في جميع مدلولاته، سواء في اللغة أو من خلال استعمالها في القرآن الكريم، كما يتم دراسة معنى الالفاظ المقاربة لدلالة الاعتبار لبيان مدى علاقتها به من خلال شواهد هذه العلاقة في القران الكريم، كما تتحدد في دراسة السياقات التي جاء فيها طلب الاعتبار من خلال بيان الدلالات التي دلت عليه، والاستشهاد عليها من القرآن الكريم.

الفصل الأول

الاعتبار ومقارباته- دراسة المفهوم

المبحث الأول

مفهوم الاعتبار

المطلب الأول: تعريف الاعتبار

الاعتبار مأخوذ من العبرة ومشتق منها، والعبرة على وزن «فِعْلَة» من مصادر الفعل: «عبَر».

قال ابن فارس: عبر والعين والباء والراء فيها أصلٌ صحيح واحدٌ يدلُّ على النفوذ والمضيِّ في الشيء[1]. وقد جاءت في معاجم اللغة على عدة معان، لا تخرج عن خمسة وهي على النحو التالي:

أولاً: قطع الطريق من طرف إلى طرف آخر ومنه اعبر الوادي أو الطريق عبورا ويقال عبره عبراً ويقال وعِبرُ الوادي ويفتحُ: شاطِئُه وناحِيَتُه. وعَبَرَه عَبراً وعُبوراً: قَطَعَه من عِبره إلى عِبرِهِ. ومنه أيضا المِعبَرُ: ما عُبِرَ به النَّهرُ وبالفتح: الشَّطُّ المُهَيَّأ للعُبُور[2]. و قيل عَبَرَه يَعبُره عَبرا وعُبُوراً: قطعه من عِبره إلى عِبره، وعَبَرَ بفلان الماء وعبَّره به. وعَبَرَ السبيل يَعبُرُها عُبُوراً: شقها. وهم عابِرُو سبيل وعُبَّارُ سبيل، والشِّعرَى العَبُورُ سميت بذلك لأنها شَقَّتِ المجرَّة، وانتقلت من منزلة إلى منزلة في هذه المجرة. وعَبَرَ السَّفَرَ يَعبُرُه عَبراً: شقه. وناقة عُبرُ أسفارٍ، وعَبرٌ عِبرٌ: قوية تشق ما مرت به، وكذلك الرجل الجريء على الأسفار الماضي فيها[3].

ثانياً: تفسير الرؤيا: عَبَرَ الرُؤيا يَعبُرُها عَبر وعِبارةً وعبَّرها فسَّرها وأخبر بما يؤول إليه أمرُها وفي التنزيل العزيز (إن كنتم للرؤيا تَعبُرون),[يوسف:43]. أي إن كنتم تعبُرون الرؤيا واستعبَرَه إياها سأله تَعبيرَها. والعابر: الذي ينظر في الكتاب فيَعبُره؛ أي يَعتَبرُ بعضه ببعض

---

(1) أبن فارس، أبو الحسن احمد بن فارس بن زكريا(ت 395هـ),**معجم مقاييس اللغة**، 6م، (تحقيق عبدالسلام هارون)، دار الفكر، 1979، ج4، ص 207.

([2]) الفيروز آبادي، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب(ت 817هـ)، **القاموس المحيط**، ط 8، 1م، (تحقيق مكتب تحقيق التراث - مؤسسة الرسالة)، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2005م، ج1، ص 435.

([3]) ابن سيدة، أبوالحسن علي بن اسماعيل(ت 458هـ)، **المحكم والمحيط الأعظم**، ط1، 11م، (تحقيق عبد الحميد هنداوي)، دار الكتب العلمية، بيروت,2000م، ج2، ص 131.

حتى يقع فهمُه عليه ولذلك قيل عبَر الرؤيا واعتَبَر فلان كذا وقيل أُخذ هذا كله من العِبر[1].

وقال عَبَرتُ الرؤيا عَبرًا ـ أيضاً ـ وعِبَارَةً: فسرتها، وبالتثقيل[2] مبالغة وفي التنزيل: ﴿ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾[يوسف: 43] [3]. وهذا ما ذهب إليه أهل المعاجم وزاد بعضهم عَبَرَ الرُّؤيَا يَعبُرُها عَبراً، بالفَتح، وعِبَارَةً، بالكسر، وعَبَّرَها تَعبِيراً: فَسَّرَهَا وأخبَرَ بما تؤُول، وقيل: بآخِرِ ما يَؤُول إليهِ أمرُهَا. والعابِرُ: الذي يَنظُرُ في الكِتَابِ فيَعبره، أي يَعتَبِرُ بعضَهُ ببعض حتَّى يَقَعَ فَهمُه عليه، ولذلك قيل: عَبَرَ الرُّؤيا، واعتَبَرَ فلانٌ كذا[4].

ثالثاً: التعجب والتدبر: اعتبر منه إذا تعجب. وعَبَر الكتابَ يعبُره عَبراً: تدبَّره في نفسه ولم يرفع صوته بقراءته. والعِبرة العجب، واعتَبَر منه: تعجّب[5].

رابعاً: البكاء ونزول الدمع: والعبرة بالفتح: تحلُّب الدمع، وكذلك عبرت عينه واستعبرت، أي دمعت. والعبران: الباكي. والعبر بالتحريك: سخنة في العين تبكيها[6].

وقيل: هي الدمعة قبل أن تفيض، أو تردد في البكاء في الصدر أو الحزن بلا بكاء[7].

وقيل: هي أن ينهمل الدمع ولا يسمع البكاء[8]، قال الشاعر:

كـــأنّ العيـــونَ المُرسَـــلاتِ عَشِـــيَّةً شـــآبِيبُ دَمـــعِ العَبَـــرةِ المُتَحـــاتِنِ[9]

وقيل: «ما كانت بهشةٌ إلا وبعدها جهشة»، وهي العبرة، وذبحته العبرة: خنقته وأخذت بحلقه[10]. ومنه ما نقل عن رجل من همدان قال: قال معاوية لضرار الصدائي يا ضرار صف لي عليا رضي الله عنه قال: أعفني يا أمير المؤمنين! قال: لتصفنه، قال:. ..، وذكر منها أنه كان غزير

([1]) ابن منظور، محمد بن مكرم الأفريقي المصري(ت 711هـ)، **لسان العرب**، الطبعة الأولى، 15م، دار صادر، بيروت، ج4، ص529.

([2]) أي: عبَّرت.

(3) الفيومي، أحمد بن محمد بن علي(ت 770هـ)، **المصباح المنير في غريب الشرح الكبير**، 1م، المكتبة العلمية، بيروت، ج2، ص 390.

([4]) الزَّبيدي، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني(ت 1205هـ)، **تاج العروس من جواهر القاموس**، (تحقيق مجموعة من المحققين)، 40م، دار الهداية، ج12، ص501.

([5]) ابن منظور، **لسان العرب**، ج4، ص 529.

([6]) الجوهري، إسماعيل بن حماد(ت 393هـ)، **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**، الطبعة الرابعة، 6م، دار العلم للملايين، بيروت، 1990م، ج2، ص 733.

([7]) الفيروزآبادي، **القاموس المحيط**، ج1، ص 435.

([8]) ابن سيدة، **المحكم والمحيط الأعظم**,ج3,ص272.

([9])[9] قائل البيت هو: الحكم بن الحكيم بن عمرو بن الغوث من قبيلة طي الملقب بالطرماح (ت 125).

([10])الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد(ت 538هـ)، **أساس البلاغة**، ط الأولى، 2م، (تحقيق محمد باسل)، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998م، ج1، ص153- 309.

العبرة[1]. أي كثير البكاء. ومنه رثاء ليلى الأخيلية لتوبة الخفاجي حيث قالت:

لتبــك العــذارى مــن خفاجــة نســوة بمـــــاء شــــؤون العبـــــرة المتحـــــدر[2]

خامساً: الاعتبار بما مضى. قال الخليل:(العبرة الاعتبار لما مضى)[3]. أي الاتعاظ قال ابو العباس الفيومي:(والاعتبارُ يكون بمعنى الاختبار والامتحان، مثل: «اعتَبَرتُ الدراهم فوجدتها ألفاً» ويكون بمعنى الاتعاظ نحو قوله تعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾[الحشر: 2]. والعِبرَةُ اسم منه، وتكون العِبرةُ والاعتبارُ بمعنى: الاعتداد بالشيء في ترتب الحكم. وهو حَسَن العِبَارَة؛ أي: البيان، بكسر العين)[4]. واشار الزبيدي أن العبرة اسم من الاعتبار. وهي كالموعِظَة ممّا يتَّعظ به الإنسانُ ويَعمَلُ به ويَعتَبِرُ: ليستدلَّ به على غيره. قال الفَرّاءُ: العَبَرُ، بالتَّحريكِ الاعتِبَارُ، والاسمُ منه العِبرَةُ، بالكَسر، قال: ومِنهُ قَولُ العَرَبِ: اللّهُمَّ اجعَلنَا مِمَّن يَعبُرُ الدُّنيَا ولا يَعمُرُهَا. والمعتبر: المستدل بالشيء على الشيء، والاعتِبَارُ: هو التَّدَبُّرُ والنَّظَرُ[5]. وقال الراغب: (العِبرَةُ والاعتِبَارُ: الحالَةُ التي يُتَوصَّلُ بها من معرفَةِ المُشَاهِد إلى ما ليس بمُشَاهَدٍ)[6].

وبين الازهري في التهذيب أن العِبرة: هي الاعتبار بما مضى، وهي كالبصيرةُ اي العِبرة، يقال: أما لك بصيرةٌ في هذا ؟ أي: عِبرةٌ تعتبر بها[7]. وقال ابو البقاء:(والاعتبار مأخوذ من العبور والمجاوزة من شيء إلى شيء، ولهذا سميت العبرة عبرةً، والمعبِّر معبِّراً، واللفظ عبارة، ويقال: السعيد من اعتبر بغيره والشقي من اعتبر به غيره، وقيل: الاعتبار: هو التدبر، وقياس ما غاب على ما ظهر، ويكون بمعنى الاختبار والامتحان)[8]؛ فالاعتبار مأخوذ من العبرة ومشتق منها وعائد إليها.

وهذا ما ذهب اليه ابن فارس حيث قال: (إن العبرة والاعتبار عندنا مقيسان من عبري النهر؛

(1) البغدادي، أبوعلي إسماعيل بن القاسم القالي(ت 356هـ)، **الأمالي في لغة العرب**، 23م، دار الكتب العلمية،ج2، ص149.

(2) البغدادي، **الأمالي في لغة العرب**،ج1،ص89.

(3) الفراهيدي، **العين**، ج2، ص129.

(4) الفيومي، **المصباح المنير في غريب الشرح الكبير**، ج2، ص390.

(5) الزبيدي، **تاج العروس من جواهر القاموس**، ج12، ص504، 507، 510.

(6) الراغب الاصفهاني، الحسين بن محمد بن الفضل(ت 502)، **المفردات في غريب القران**، ط1، (تحقيق صفوان عدنان الداودي)، دار القلم، الدار الشامية، دمشق، سوريا، 1412هـ، ج1، ص543.

(7) الأزهري، أبو منصور محمد بن احمد (ت 370هـ)، **تهذيب اللغة**، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت 2001م، ج12، ص 125.

(8) ابوالبقاء، ايوب بن موسى الحسيني(ت 1094هـ)، **كتاب الكليات**، 1م، (تحقيق عدنان درويش و محمد المصري)، مؤسسة الرسالة، بيروت 1998م، ج1، ص147.

لأن كل واحد منهما مساوي للآخر، وهذا عندنا اشتقاق الاعتبار)[1].

والاعتبار: هو تعلق سببٍ بمسبَّب، فلا يكون هناك اعتبار بدون وجود عبرة، فهي مصدره وهي سببه وحادث بسببها، وحيث إنه حالة من التأثر بهذه العبرة وسبب لحدوثها، كما قال أبو حيان التوحيدي: (وإذا صح التأثير من المؤثر وقبوله من المقابل، صح الاعتبار)[2]. ونقل قولهم: لأسبينّ رومي النهار ولأجعلنّه عبرة لذوي الاعتبار[3].

ومن خطب عبد الملك بن مروان لما قتل عمراً الأشدق بن سعيد بن العاص: (ارموا بأبصاركم نحو أهل المعصية، واجعلوا سلفكم لمن غبر منكم عظة ولا تكونوا أغفالا من حسن الاعتبار)[4].

فعليه يرى الباحث أنه لا يمكن أن يكون هناك اعتبارٌ إلا بوجود عبرة يتأثر بها المعتبر، وهذه العبرة إما أن تكون عبره مسموعة، كما هو في توجيهات الأنبياء أو مواعظ الخطباء. وإما تكون مشاهدة كعظمة خلق الكواكب والأجرام، كما حصل مع سيدنا إبراهيم عليه السلام كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾[الأنعام: 75]. أوغيرها من الأحداث. وإما أن تكون عبرة فعلية؛ بحيث يعمل الإنسان عملً يجد أنه بعمله هذا وقع في خطأ، وهذا ما عليه أهل التوبة، كما ذكره القران في مواطن كثيرة ؛حيث قال تعالى: ﴿ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾[البقرة: 286]. وهذا عبرةٌ مما فعلوا وتابوا منه لما علموا أنهم قد وقعوا في هذا الخطأ معتبرين من فعلهم، فكان كأنه موعظة لهم عندما علموا أنه خطأ وحيادٌ عن الصواب.

فمما سبق يرى الباحث أن العبرة في اللغة جاءت على ثلاث تصاريف مرة بالفتح (عَبَرَ) وتعني الانتقال من أمر الى آخر، ومرة جاءت بالسكون (عَبْر) وتعني الشيء المعد للعبور أو الوسيلة التي تكون سبب في الانتقال من أمر الة آخر. وفي تصريف آخر جاءت بالتشديد (عُبَّر أو عَبَّر) وتعني التوضيح لأمر ماء ليفهم منه أمر آخر.

أما فيما يتعلق بمعنى الاعتبار من خلال جذره نستطيع أن نتوصل إلى تعريفه بأنه: توصل الإنسان إلى معرفة الغاية من ذكر العبر في القرآن وتأثره بها، من خلال انتقاله من الجهل الى العلم أو من الغفلة الى الهداية أو من المعصية الى الطاعة عن طريق هذه العبر. مما يدفعه إلى فعل ما يرضي الله سبحانه وتعالى.

المطلب الثاني: استعمالات دلالة الاعتبار في القرآن

([1]) ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، ج4، ص209.

([2]) أبو حيان التوحيدي، علي بن محمد بن العباس(ت 400هـ)، **المقابسات**، ط الثانية، 1م، (تحقيق حسن السندوبي)، دار سعاد الصباح، 1992م، ج1، ص125.

([3]) الهاشمي، أحمد بن ابراهيم بن مصطفى(ت 1362هـ)، **جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب**، 2م، (تحقيق لجنة من الجامعيين)، مؤسسة المعارف، بيروت، ج1، ص270.

([4]) القلقشندي، احمد بن علي(ت 821هـ)، **صبح الاعشى في صناعة الأنشاء**، ط الاولى، 15م، دار الفكر، دمشق، 1987م، ج1، ص261.

إن من بلاغة القرآن الكريم أن يستعمل الكلمة الواحدة في عدة معاني، ومن هذه الاستعمالات استعمال القرآن لدلالة الاعتبار التي هي من مصادر الفعل <عبر>حيث ورد استعمالها في القرآن بتسعة مواطن، وقد دل هذا الاستعمال على أربعة معانٍ، هي على النحو التالي:

1- تفسير الرؤيا: إن من استعمالات لفظ عبر في القرآن هو مجيئه بمعنى التفسير والتأويل للرؤيا، وقد جاء هذا الاستعمال في موطن واحد من القرآن، حيث قال تعالى:(وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ)[يوسف:43]. قال الزمخشري:(وتَعْبُرُونَ خبر آخر. أو حال، وأن يضمن تَعْبُرُونَ معنى فعل يتعدى باللام، كأنه قيل: إن كنتم تنتدبون لعبارة الرؤيا. وحقيقة «عبرت الرؤيا» ذكرت عاقبتها وآخر أمرها، كما تقول: عبرت النهر، إذا قطعته حتى تبلغ آخر عرضه وهو عبره. ونحوه: أولت الرؤيا إذا ذكرت مآلها وهو مرجعها)[1]. وزاد عليه الرازي:(بأنها من عَبَرْتُ الرؤيا أعْبُرها عِبَارةً وعَبَّرتُها تعبيراً أذا فسرتها)[2]. أما ابن عاشور فقد ذكر: أن تعبيرها من تفسيره ما تدل عليه من خلال تأويل الإشارات والرموز التي فيها[3]. وعليه فإن عبر في هذا الاستعمال تدل على تفسير الرؤيا، والعبور من الحلم الى الحقيقة.

2- عبر الطريق: قد جاء استعمال لفظ عبر في القرآن بمعنى عبور الطريق، أو التجاوز من جهة الى جهة أخرى، وقد استعمل بهذا المعنى في موطن واحد في القرآن، هو قوله تعالى:(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا)[النساء:43]. وفي هذا المعنى قال الطبري اختلف أهل التأويل في المراد بقوله تعالى(الا عابري سبيل)، حيث ذكر بعضهم: أن إلا مجتازي طريق أي مسافرين. وقال آخرون أن المراد بلا تقربوا الصلاة هو المصلى وعليه الاستثناء يكون إلا مجتازين فيه للخروج منه. فقال وأولى الأقوال عندي:(ولا جنبًا إلا عابري سبيل، إلا مجتازي طريق فيه. وذلك أنه قد بيَّن حكم المسافر)[4]. وهذا ما ذهب اليه الزمخشري عند حمل الصلاة على المسجد، حيث قال:(وقال: من فسر الصلاة بالمسجد معناه: لا تقربوا المسجد جنبا إلا مجتازين فيه، إذا كان الطريق

([1]) الزمخشري، ابو القاسم محمود بن عمر، **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، ط3، م4، (تحقيق عبدالرزاق المهدي)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج2، ص474.

([2]) فخر الدين الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن(ت 606هـ)، **مفاتيح الغيب**، ط الثالثة، 32م، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1420هـ، ج18، ص463.

([3]) ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد التونسي(ت 1393هـ)، **التحرير والتنوير "تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد"**، 30م,الدار التونسية للنشر، تونس، 1984م، ج12، ص281.

([4]) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير(ت 310هـ)، **جامع البيان في تأويل القران**، ط الأولى، 24م، (تحقيق أحمد شاكر)، مؤسسة الرسالة، 2000م، ج8، ص384.

فيه إلى الماء، أو كان الماء فيه أو احتلمتم فيه)[1]. وهذا اختيار ابوحيان حيث قال:(وعابر السبيل هو المار بالمسجد من غير لُبثٍ فيه)[2]. وقال ابن عطية:(وعابري سبيل هو من العبور أي: الخطور والجواز، ومنه: عبر السفينة النهر، ومنه: ناقة عبر السير والفلاة والمهاجرة أي تعبرها بسرعة السير)[3].وعليه فالمراد بالعابر في هذه الآية هو عبور الطريق وشقه والانتقال من خلاله والسير فيه.

3- الدليل: ومن استعمالات عبر في القرآن الكريم مجيئها بمعنى الدليل الذي بالعلم به يزال الجهل. كما في قوله تعالى:(وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ)[النحل:66]. قال البقاعي:(ولما كانت الأدلة يعبر بها من الجهل الى العلم، قال: (لعبرة)[4]. فهذا فيه بيان أن العبرة في هذا الموطن تعني الدليل، فكأنه جعل دليلاً لكم على قدرته سبحانه هذا اللبن الذي تشربون. قال بن عادل:(وهذه الجملة يجوز أن تكون مفسِّرة للعبرة، كأنه قيل: كيف العبرة؟ فقيل: نسقيكم من بين فرثٍ، ودم لبناً خالصاً، ويجوز أن يكون خبراً لمبتدأ، مضمر، والجملة جواب لذلك السؤال، أي: هي، أي: العبرة نسقيكم، ويكون كقوله: «تَسْمَعُ بالمُعَيْدِيِّ خَيرٌ مِنْ أن تَراهُ»)[5]. فيحمل على هذا الكلام انها بمثابة الدليل على هذ السقيا. وتدل كذلك على الدليل في استعمالها في قوله تعالى:(وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ)[المؤمنون:21]. حيث قال الرازي: وفي هذا استدلال بأحوال الحيوانات حيث يستدل بذلك على قدرة الله وحكمته[6]. ومن استعمالاتها ايضاً في هذا المعنى، قوله تعالى:(يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ)[النور:44]. قال الزمخشري:(وهذا من تعديد الدلائل على ربوبيته وظهور أمره، فيعاقب بين الليل والنهار، ويخالف بينهما بالطول والقصر، وما هذه إلا براهين في غاية الوضوح على وجوده وثباته، ودلائل منادية على صفاته، لمن نظر وفكر وتبصر وتدبر)[7]. وقال ابو السعود:(أي لدلالةٌ واضحةٌ على وجود الصَّانع القديم ووحدته وكمال قُدرته وإحاطة

([1]) الزمخشري، **الكشاف**، ج1، ص514.

([2]) أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف بن علي(ت 745هـ)، **البحر المحيط في التفسير**، 8م، (تحقيق صدقي محمد جميل)، دار الفكر,1420هـ، ج3، ص651.

([3]) ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب الأندلسي (ت 542هـ)، **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، ط الأولى، 5م، (تحقيق: عبد السلام عبد الشافي)، دار الكتب العلمية، لبنان، 1413هـ -1993م، ج2، ص57.

([4]) البقاعي، برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر(ت 885هـ)، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، 8م، (تحقيق عبدالرزاق المهدي)، دار الكتب العلمية، بيروت ,1995م، ج11، ص193.

([5]) ابن عادل، أبو حفص عمر بن علي الحنبلي الدمشقي(ت 775هـ)، **اللباب في علوم الكتاب**، الطبعه الاولى، م20، (تحقيق الشيخ عادل أحمد والشيخ علي محمد معوض)، دار الكتب العلمية، بيروت، 1419 هـ / 1998م ج12، ص98.

([6]) الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج23، ص270.

([7]) الزمخشري، **الكشاف**، ج3، ص246.

علمه بجميع الأشياءِ ونفاذ مشيئته وتنزيهه عمَّا لا يليقُ بشأن العليِّ)[1]. وعليه فإن استعمال لفظ عبر في هذه المواطن يدل على الدليل.

4- الاعتبار: فقد استعمل القرآن الكريم لفظ عبر في معنى طلب الاعتبار، من خلال التفكر في هذه العبر والاتعاظ بها، وهذا الاستعمال جاء في القرآن في ستة مواطن هي: قوله تعالى:(هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ)[الحشر:2]. قال ابن عاشور: إن في ذلك نداء ودعوة لكل ذي بصر يرى مواقعهم من بعدهم أن يعتبر وتكون له عبرة في قدرة الله عليهم في إخراجهم وتسليط المسلمين عليهم، ونصره سبحانه للحق على الباطل[2].

(قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ)[آل عمران:13]. قال الطبري:(يعني: إن فيما فعلنا بهؤلاء الذين وصفنا أمرهم، من تأييدنا الفئة المسلمة مع قلة عددها، على الفئة الكافرة مع كثرة عددها "لعبرة"، يعني: لمتفكرًا ومتَّعظًا لمن عقل وادّكر فأبصر الحق)([3]). واستعملت في قوله تعالى:(لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ)[يوسف:111]. قال الماوردي:(يعني في قصص يوسف وإخوته اعتبار لذوي العقول)[4]. وأن يكون هذا الاعتبار من خلال النظر في قصة يوسف وكيف انقاذ الله له ونصره بعد خوف وذل. ومن استعمالاتها في الاعتبار أيضاً قوله تعالى:(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى)[النازعات:26]. قال ابن عادل: أي(إنَّ فيما قصصنا عليك اعتباراً وعظةً لمن يخاف)[5]. فمما تقدم فإن استعمال عبر في هذه المواطن يدل على الاعتبار من هذه العبر.

([1]) أبو السعود، محمد بن محمد العمادي (ت 982هـ)، **إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم**، 9م، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج6، ص185.

([2]) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج28، ص72.

([3]) الطبري، **تفسير الطبري**، ج6، ص243.

([4]) أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي (ت 450هـ)، **تفسير الماوردي النكت والعيون**، 6م، (تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج3، ص89.

([5]) ابن عادل، **اللباب في علوم الكتاب**، ج20، ص121.

المبحث الثاني

الالفاظ القريبة من الاعتبار وعلاقتها الدلالية به

المطلب الأول: التذكرة وعلاقتها الدلالية بالاعتبار

أولاً: تعريف التذكرة:

التذكرة من (ذكر)؛ والذال والكاف والراء أصلٌ يتفرع منه عدة معان[1]؛ فقد أتى الذكر ضد النسيان ونقيضه، أي: عدم النسيان وإدامة تذكر الشيء واستحضاره في الذهن، ومنه: ذكرت الشيء بعد النسيان، وقد قسمه أهل إلى اللغة إلى قسمين: ذكر باللسان، وذكر بالقلب.

ولذلك شبه الخيط أو الرتيمة التي تربط بالإصبع بالذكرة؛ ليتذكر الإنسان بها الحاجة التي يريد [2]. وهو جمع ذكرة، وهو خلاف التأنيث، والذكرى اسم للتذكير[3]، ومنه استذكر الشيء: درسه للذكر، والاستذكار الدراسة للحفظ والتذكرة. ومنه قولك: تذكرت ما نسيت، وذكرت الشيء بعد النسيان، أو ذكرته بلساني أو قلبي[4].

وقيل: الذكر: هيئة للنفس تمكن الإنسان من حفظ ما يقتنيه من المعرفة، وإن ما يتعلق باللسان: ذكر عن النسيان، وما يتعلق بالقلب ليس عن نسيان بل عن إدامة الحفظ[5]. ومن أهل اللغة من جعل الذكر ـ بالكسر ـ لذكر اللسان، والذكر ـ بالضم ـ لذكر القلب والجنان، ومنهم من لم يفرق بينهما؛ حيث جعل الذكر باللسان أو بالقلب كلاهما ضد النسيان[6]. ومنهم من جعل الضم هو الأساس في ذلك وهذا ما ذهب إليه ابن فارس حيث قال: اجعله منك على ذُكرٍ بضم الذال أي لا تنسه[7].وقال ابن منظور: (الذِكر: ما ذكرته بلسانك وأظهرته، والذُكر بالقلب، يقال: ما زال مني على ذُكر؛ أي: لم أنسه)[8]. وقد خالفه الجوهري حيث قال: (والذكر والذكرى بالكسر خلاف النسيان ولم يذكر الضم)[9]. وقال الزمخشري: (ذكرت الشيء وتذكرته، بمعنى أنه استحضار للشيء الذي

([1]) ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**,ج2,ص358.
([2]) ابن منظور، **لسان العرب**,ج4، ص308
([3]) الفراهيدي، الخليل بن احمد بن عمرو بن تميم(ت:170هـ)، **كتاب العين**، ط الأولى، (تحقيق د.مهدي المخزومي و د. ابراهيم السامرائي)، دار ومكتبة الهلال، ج5، ص347.
([4]) ابن منظور، **لسان العرب**,ج4، ص308
([5])زين الدين محمد، عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي زين العابدين الحدادي القاهري(ت 1031هـ)، **التوقيف على مهمات التعريف**، ط1، 1م، عالم الكتب، القاهرة، 1990م,ج1، ص171.
([6]) الرازي، زين الدين ابو عبدالله محمد بن ابي بكر(ت 666هـ)، **مختار الصحاح**، ط الخامسة، 1م، (تحقيق يوسف الشيخ محمد)، المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت، 1999م، ج1، ص 112.
([7]) ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، ج2، ص357.
([8]) ابن منظور، **لسان العرب**، ج4، ص 308
([9]) الجوهري، **الصحاح**، ج3، ص 228.

يغيب عن الإنسان. وإذا جرى على لسانك أمرٌ قد سبق ذكره تقول: جرى منه ذكر)[1]، واستشهد بقول الحارث بن حرجة الفزاري، حيث قال:

فـــــأبلغ دريـــــداً وأنـــــت امـــــرؤٍ متـــــى مـــــا تـــــذكره يســـــتذكر[2]

وكذلك قولك: تذكَّرَ؛ أي: طلب ما قد فات[3]. ويقال: ذكره وحفظه فهو ذكِر أو هي ذكرة، ومنه الذاكرة وهي قدرة النفس على الاحتفاظ بالتجارب السابقة واستعادتها، ومنه التذكرة: وهي ما يستذكر بها وتدعو إلى العبرة، وفي التنزيل قوله تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ* مَن شَاء ذَكَرَهُ﴾[المدَّثر: 54 - 55][4]. وذهب صاحب «تاج العروس» إلى أنها اسم للتذكير في القران؛ يراد به عدم النسيان، لأخذ العبرة والتوبة إلى الله حيث قال تعالى: ﴿يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾[الفجر: 23] أي: التوبة، وقال: تذكر الآخرة يدعو إلى الزهد في الدنيا[5].

ويراد بالذكر: الكتاب العزيز، وكذلك تمجيد الله وتسبيحه وتقديسه وتهليله والثناء عليه بجميع محامده. والذكر كذلك يُراد به الصلاة وقراءة القران والشكر والطاعة[6].

وقيل: إن الذكر الصيت والثناء، ويكون إما بالخير وإما بالشر. وأما الثناء فإنه لا يكون إلا في الخير مجازاً[7]. وهذا ما ذهب إليه الزمخشري حيث قال: (إن من المجاز إذا قيل للرجل ذو ذكر؛ أي: صيت وشرف)[8]. وقد خالفه ابن فارس حيث جعله من الحقيقة[9].

وبعد استقصاء أغلب ما قيل في معنى التذكرة وذكر جملةٍ من أقوال العلماء من أهل اللغة؛ يرى الباحث أن التذكرة هي: تذكر أمر له في الذهن صورة سابقة ويراد منها عدم النسيان، والمداومة على حفظ الشيء وعدم نسيانه.

([1]) الزمخشري، **أساس البلاغة**، ج1، ص 314.
([2]) الزمخشري، **أساس البلاغة**، ج1، ص 314.
([3]) الفراهيدي، **كتاب العين**، ج5، ص 246.
([4]) ابراهيم مصطفى وآخرون، **المعجم الوسيط**، ج1، ص307.
([5]) الزبيدي، **تاج العروس من جواهر القاموس**، ج11، ص380.
([6]) ابن منظور، **لسان العرب**، ج4، ص308.
([7]) الزبيدي، **تاج العروس من جواهر القاموس**، ج11، ص 377.
([8]) الزمخشري، **أساس البلاغة**، ج1، ص 315.
([9]) ابن فارس، **مقاييس اللغة**، ج2، ص 359.

ثانياً: علاقة دلالة التذكرة بالاعتبار

إن الدلالات القرآنية قريبة المعنى، يعتقد كثير من الناس أنها مترادفة؛ بحيث تدل على نفس المعنى، كما هي العلاقة بين التذكرة والعبرة، ولكن لو دققنا النظر في هذه العلاقة، لوجدنا أن التذكرة تدل على أخذ العبرة والعظة مما يحصل، ولكن بطريقة مختلفة، تجعل هذه العلاقة تنتقل من تغير باللفظ ومشاركة بالمعنى؛ وهو حقيقة الترادف، كما يظن من ذلك، إلى أمر أعظم تتجلى فيه روعة وعظمة القران الكريم وعلو نظمه الذي هو سر إعجازه وبيانه، وهذا ما أشار اليه الخطابي بأن القرآن أتى بأفصح الألفاظ في أحسن النظوم متضمناً أصح المعاني؛ لأنه يضع اللفظ موضعه الأخص الأشكل به؛ وذلك أن في الكلام الفاظاً متقاربة المعنى يحسبها كثير من الناس أنها متساوية في إفادة بيان مراد الخطاب، والسبب في هذا الاختلاف أن لكل لفظة خاصيةً تتميز بها عن صاحبتها في بعض معانيها، وإن كانا يشتركان في بعضها[1]. فدلالة العبرة أتى فيها الطلب مباشره للاعتبار، أما دلالة التذكرة فأتت بطلب تذكر أحداث أو مواقف معينةً تجعل الإنسان من خلال تذكره لها يستنبط العبرة بنفسه، ويعتبر بها. فهي طريقه أكثر تأثيراً.

وتتجلى هذه العلاقة من التنوع في ذكر هذه الدلالة؛ بحيث أتت في القران الكريم بصيغتين:

أولاً: صيغة الأمر: وهذه غالباً ما تكون بمعنى ذكر الله سبحانه وتعالى والثناء عليه. كما وردت في القران بمعنى طلب التذكر أو التذكير لأخذ العبرة، حيث وجهة في بعض المواطن الى النبي صلى الله عليه وسلم، وفي بعضها الى المؤمنين، وأخرى الى بني إسرائيل، والأمم السابقة، وجاءت في موطن واحد فقط الى الناس عامه. وجميعها تدعو الى الاعتبار. وسنقف عند بعض هذه المواطن لبيان علاقة هذه الصيغة في الاعتبار.

أما فيما يتعلق بالمواطن التي وجهة فيها الى النبي صلى الله عليه وسلم فقد كانت في ستة عشر موطناً جميعها تدعو الى أن يذكر بما جاء في القرآن الكريم وهي أكثر المواطن التي ذكرت فيها التذكرة بهذه الصيغة، لأنه صلوات الله وسلامه عليه هو المكلف بالتبليغ والتذكير في المقام الأول، كما قال تعالى: {نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ}[ق: 45]. وقال تعالى: {فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلاَ مَجْنُونٍ}[الطور: 29]. وقال تعالى: {فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ}[الغاشية:21]. ولذلك تكرر قول الله عز وجل: «واذكر» في سورة مريم وحدها خمس مرات، وفي كل تذكرة طلب لأخذ العبرة والاعتبار بها، حيث قال تعالى:(وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا),[مريم:16]. فذكره أولاً لقصة مريم لبيان قدرة الله

([1]) الخطابي، ابو سليمان حمد بن ابراهيم(ت 388هـ)، **ثلاث رسائل في اعجاز القران**، ط الخامسة، 1م، (تحقيق محمد خلف الله و د. محمد زغلول) دار المعارف، 2008م، ص 27، 29.

سبحانه وحكمته فيما حدث لها، وكيف أنها التجأت إلى الله وحده واعتصمت به، فيه حثٌّ له على الاعتماد والاعتصام بالله وحده في مقابلة الأذى الذي سيلحق به[1]. فتذكره لمريم وصبرها على أمر الله رغم ما لاقت يبعث فيه الصبر على كل ما يمكن أن يحصل له. وبعدها في الآيات يأتي ذكره لإبراهيم عليه السلام وما حدث معه في دعوته لأبيه، وعدم قبوله لها؛ ففيها أخذ العبرة بعدم اليأس من عدم إيمان المقربين، بل ومحاربتهم لك في دعوتك، كما قال تعالى:(وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (41) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا)،[مريم:42]. فتذكُّره لقصة إبراهيم مع أبيه أكبر دافع له على التحمل في سبيل تبليغ دين الله. قال ابن عاشور: (ولما كان إبراهيم قد جاء بالحنفية وخالفها العرب بالإشراك وهم ورثة إبراهيم، كان لتقديم ذكره على البقية الموقعُ الجليل من البلاغة، كما أن فيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم على ما يلقى من مشركي قومه لمشابهة حالهم بحال قوم إبراهيم)[2]. وكذلك ذكره لموسى عليه السلام وكيف أنه احتاج إلى من يعينه على تبليغ دين الله لفرعون، يؤخذ منها أهمية الرسالة وعظم شأنها، حيث قال تعالى:(وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (51) وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (52) وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا)،[مريم:53]. ذكر الطبري: أن هذه الرحمة هي التأييد والإعانة على الرسالة[3]. أما في ذكره لإسماعيل عليه السلام فقد قال تعالى:(وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (54) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا)،[مريم:55]. فهذا التذكير فيه دعوة الى الاعتبار بأن الهدف من هذه الرسالة عبادة الله وحده وأن هذه العبادة هي التي ترفع شأن العبد عنده سبحانه وتقربه منه وترضيه سبحانه وتعالى. وبين الزمخشري: أن فيها بيان أن الأقربون أولى بالدعوة وأنهم هم الذي يجب أن يبدأ فيهم الانسان ليكونوا القدوة للناس كما قال تعالى:(وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ),[الشعراء:214][4]. وختم آخر ذكر في السورة بإدريس عليه السلام لبيان أن الرسالة اصطفاءٌ من الله ورفعة؛ ليأخذ العبرة منها بالاهتمام بأمرها، وتحمل كل ما يواجه في سبيل تبليغها. كما قال تعالى:(وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (56) وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا)،[مريم:57].

وقد تكرر طلب التذكير في سورة ص أربع مرات هي قوله تعالى:(اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ) [ص:17]. وقوله تعالى:(وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي

([1]) أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف بن علي(ت 745هـ)، **البحر المحيط في التفسير**، 8م، (تحقيق صدقي محمد جميل)، دار الفكر,1420هـ، ج7، ص247.

([2]) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج16، ص111.

([3]) الطبري، **تفسير الطبري**، ج18، ص211.

([4]) الزمخشري، **الكشاف**، ج3,ص23.

مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ) [ص:41]. وقوله تعالى:(وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ) [ص:45].وقوله تعالى:(وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ) [ص:48]. ولكن في جميع هذه الآيات لم يقرنها بالكتاب كما في سورة مريم، والسبب في ذلك ما اشار اليه ابن عاشور: أنه سبق ذكرها في سورة مريم، وهي أول السور التي طلب فيها الذكر لهذه القصص من النبي صلى الله عليه وسلم، فقرنها بسورة مريم بالكتاب؛ أي: أن كلَّ ما طلب من النبي صلوات الله وسلامه عليه موجودٌ في القران[1]. ويراد منها: يا محمد تذكر ما حصل مع الأنبياء؛ تثبيتاً لقلبه صلى الله عليه وسلم من خلال اعتباره بما حدث معهم، وكذلك ليعتبر المؤمنون اقتداءً واتباعاً لسنته عليه أفضل الصلاة والتسليم.

أما في المواطن التي كان فيها التوجيه للمؤمنين بالتذكر دلالة على الاعتبار كان بتذكيرهم بالأحداث والمواقف التي مرت بهم سابقاً، كأن يطلب الله منهم تذكر حالهم قبل الإسلام، وكيف منَّ الله عليهم بهذا الدين الذي أخرجهم من ظلمات الشرك والكفر إلى نور الإسلام، وأعزهم فيه، وكيف أنه سبحانه أنجاهم من النار بعد أن كانوا على وشك الهلاك، كما قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[آل عمران: 103].

يقول الطبري: (وتأويل ذلك: واذكروا ـ أيها المؤمنون ـ نعمة الله عليكم التي أنعمَ بها عليكم، حين كنتم أعداء في شرككم، يقتل بعضكم بعضًا، عصبيةً في غير طاعة الله ولا طاعة رسوله، فألف الله بالإسلام بين قلوبكم، فجعل بعضكم لبعض إخوانًا بعد إذ كنتم أعداءً تتواصلون بألفة الإسلام واجتماع كلمتكم عليه)[2]. ففي تذكرهم لحالهم السابق، وكيف تغير حالهم هذا بعد الإسلام، مما يجعلهم يعتبرون بما مضى إلى ما هو مستقبل، ويتمسكون به أشد التمسك.

وكذلك طلب الله منهم تذكر حالهم عندما كانوا قلة وضعفاء، وكيف أنعم الله عليهم بالنصر والتثبيت والرزق، وهم الذين خرجوا من ديارهم لا يملكون شيئاً، فجاء طلب التذكرة بعد أن منَّ الله عليهم بالنصر على الكافرين في معركة بدر، وكل هذا فيه أبين دلالة على قدرة الله ونصره لأوليائه المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُواْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم

([1]) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج16، ص 79.
([2]) الطبري، **تفسير الطبري**، ج7، ص 77.

بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُون﴾[الأنفال: 26]. وهذه التذكرة فيها دلالة على الاعتبار بأن لا ناصر ولا رازق ولا معين إلا الله سبحانه، ففيه تذكير للمؤمنين بحالهم وكيف تغير من خوف إلى أمن ومن ضعف إلى قوة ومن فقر إلى غنى. فكيف لا يدفعهم ذلك إلى الاعتبار بكل ما مر بهم في الماضي إلى التمسك بكل أوامر الله في المستقبل، يقول ابن عاشور: (فكيف لا يستجيبون لله فيما بعد ذلك، وهم قد كثروا وعزوا وانتصروا)[1].

وجاءت التذكرةُ أيضاً في بعض المواطن موجهة الى بني اسرائيل حيث قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون﴾[البقرة: 63]. فهذا الأمر بالذكر موجهٌ إلى بني إسرائيل بأن يعملوا بما أخذوا عن الله سبحانه، ويعتبروا به، قال الطبري: (واذكروا ما فيما آتيناكم من كتابنا من وعد ووعيد شديد، وترغيب وترهيب، فاتلوه، واعتبروا به، وتدبروه إذا فعلتم ذلك، كي تتقوا وتخافوا عقابي، بإصراركم على ضلالكم فتنتهوا إلى طاعتي، وتنزعوا عما أنتم عليه من معصيتي)[2]. وجاءت أيضاً موجهة الى من سبق من الأمم كقوم عاد كما قال تعالى:(أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ),[الأعراف:69]. وكذلك وجهة الى قوم ثمود حيث قال تعالى:(وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (73) وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ),[الأعراف:74]. ووجهة أيضاً الى قوم مدين كما بين قال تعالى:(وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ),[الأعراف:86]. فالتذكير لهذه الأمم من أنبياءهم فيه دلالة على أن التذكرة تدعوا الى الاعتبار لأن التذكير من الاسباب التي تجعل العبد يعود الى ربه معتبراً بما جاءه من تذكير فيعمل بما يرضي الله سبحانه وتعالى قال الرازي:(واذكروا آلاء الله اعملوا عملاً يليق بتلك الإنعامات لعلكم تفلحون وإنما أضمرنا العمل لأن الصلاح الذي هو الظفر بالثواب لا يحصل بمجرد التذكر بل

([1]) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج9، ص 319.
([2]) الطبري، **جامع البيان في تأويل القران**، ج 2، ص 156.

لا بد له من العمل)[1]. وهذا فيه دلالة على أن التذكرة تدعو الى الاعتبار الذي ينتج منه العمل. كما أنها أيضاً سبباً في الوقاية من سخط الله الذي يكون سببه العمل بعد هذا الاعتبار الذي كان سببه التذكرة كما قال تعالى:(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ),[الأعراف:165]. كما أن عدم الأخذ بالتذكرة من خلال الاعتبار بها صفة للكافرين كما قال تعالى:(وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ),[الصافات:13]. قال الزمخشري:(أي أن دأبهم أنهم إذا وعظوا بشيء لا يتعظون)[2].

فمما سبق يتبين لنا أن طلب الذكر هنا أتى بمعنى التذكرة التي يكون نهايته الاعتبار، وفي إيراد التذكرة مع من سبق فيه بيانٌ أن التذكرة سبب للعمل بما يرضي الله وأن هذا العمل نتج عن اعتبارهم بما ذكروا به. مما يجعلنا نتذكر دائماً توجيهات الله لنا في كتابه العزيز وأتباعها والعمل بمقتضاها.

ومن المواطن التي جاءت التذكرة فيها بصيغة الأمر دالةً على الاعتبار مجيئها في دعوة الناس عامه الى التذكر كما قال تعالى:(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ),[فاطر:3]. لأن الانسان عندما يتذكر هذه النعم التي هو فيها ويتفكر وينظر الى ما هو فيه من نعم يجعله ويعود الى الله بالطاعة اعتباراً بتذكره بها[3].

ثانياً: صيغة المضارع: وفي هذه الصيغة أتى طلب التذكرة بعدة دلالات، هي: تذكر، وتذكروا، و«تذكرون»، و«تتذكرون»، ويذكر، و«يذكرون»، ويتذكر و«يتذكرون»، وليذكروا. وكلها تدعو إلى الاعتبار من خلال السياق التي جاءت به، إلا أن تغير المبنى بزيادة تاء أو حذفها أو بإبدال التاء ياءً له علاقة بالسياق؛ لأنه لا يضاف حرف أو يحذف أو يبدل إلا أتى بأدق صورة وأفضل نظم، وهو سبب الإعجاز كما ذكرنا في مقدمة علاقة هذه الدلالة بالاعتبار.

وقد جاءت هذه الصيغة بالمضارع إلى الناس عامة؛ سواء بالمفرد أو الجمع، ما عدا في موطنين بتصريفين مختلفين الموطن الأول مع فرعون وكانت بـ(يتذكر) كما قال تعالى:(اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (43) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى),[طه:44]. فكان هذا التذكر خاص بفرعون الا أنه يراد من هذه الدلالة تذكر يدعو الى الاعتبار بما قيل له وهو دعوته الى عبادة الله

([1]) فخر الدين الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن(ت 606هـ)، **مفاتيح الغيب**، ط الثالثة، 32م، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1420هـ، ج14، ص302.

([2]) الزمخشري، **الكشاف**، ج4، ص38.

([3]) الطبري، **تفسير الطبري**، ج20، ص438.

وحدة، قال ابن عاشور:(التذكر من الذكر بضم الذال أي ينظر نظر المتبصر فيعرف الحق)[1]. ولكن مع خصوصية هذا الخطاب الا أنه عام الى كل من يسمع قول الهداية وتوجيه الله بأن يعتبر به ويعمل بمقتضاه. وأما عن الموطن الثاني فجاء في قوله تعالى:(أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى),[عبس:4]. وكان هذا الموطن خاصاً بالصحابي الجليل عبدالله بن أم مكتوم كما أخرجة الحاكم في المستدرك قال:(عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: أُنزلت عبس وتولى في ابن أم مكتوم الأعمى)[2]. وكذلك في هذا الموطن تفيد التذكرة الاعتبار بما جاء فيها والعمل بمقتضاها. ولكن لماذا في الدلالة الأولى مع فرعون بزيادة تاء وفي الثانية بدونها؟ ذكر السامرائي أن استعمال التي فيها زيادة المبنى أي التي فيها تاء(يتذكر) تكون للتذكر بالعقل لأنه يحتاج الى طول وقت في هذا التذكر بأمور عديدة، أما في استعمال (يذكر) يكون التذكر بالقلب لإيقاظه وتنبيهه ولما فيه مبالغة وقوة في التذكر[3].

أما بقية المواطن التي جاءت في المفرد أو الجمع كلها موجهة للناس عامةً، حيث طلب الله منهم التذكر الذي ينتج بسببه الاعتبار؛ فلو جئنا الى صيغ المفرد نجدها عامةً، مع إتيانها بالتصريفين السابقين وهما زيادة التاء وحذفها ولنفس الاسباب التي تقدمة؛ ففي (يتذكر) قال تعالى:(أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ),[الرعد:19]. وقوله تعالى:(هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ),[غافر:13]. فلو نظرنا الى هاتين الايتين نجد أن الخطاب وجه بشكل عام الى الناس ففي الأولى كان فيها بيان أن الذين يستفيدون من التذكر هم اصحاب العقول النيرة التي يدفعها التذكر الى الاعتبار، وفي الدلالة الثانية بيان أن الذي ينيب ويقبل على الله ويتأمل ويتفكر بآيات الله هو الذي يستفيد من التذكرة ويدفعه ذلك الى الاعتبار بما جاء في هذه التذكرة. ولمناسبة السياق وتعلقه بطول وقت في هذا التذكر ناسب إتيانها بالزيادة كما تقدم معنا من كلام السامرائي. أما في الايات التي جاء فيها (يذكر) دون زيادة التاء فجاءت أيضاً عامةً كما في قوله تعالى:(يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ),[البقرة:269]. وفيها أيضاً بيان أن التذكر يستفيد منه اصحاب العقول الذين يتفكرون بهذه التذكرة ولكن بدون زيادة التاء لأن السياق كان يتكلم عن الأنفاق في سبيل الله وأن الغنى والفقر من الله وكان تهدف هذه التذكرة الى حث الناس الى الاعتبار بذلك والعمل على الانفاق وعدم الشح أي لا يحتاج الى طول تذكر بل الى مبالغة وقوة في التذكر لإيقاظ القلب الى هذا العمل. قال الزمخشري:(وما يذكر الا اولوا الالباب يريد الحكماء العلام العمال.

([1]) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج16,ص226.

([2]) الحاكم، ابو عبدالله محمد بن عبدالله النيسابوري(ت 405هـ)، **المستدرك على الصحيحين**، ط الأولى، 4م، (تحقيق مصطفى عبدالقادر عطا)، دار الكتب العلمية، بيروت، 1411هـ/1990م، ج2، ص558.

([3]) السامرائي، فاضل صالح، **بلاغة الكلمة في التعبير القرآني**، الطبعة الثامنة,1م، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان,1434هـ/2013م، ص 56.

والمراد به الحثُّ على العمل بما تضمنت الآي في معنى الأنفاق)[1]. وكذلك في بقية المواطن التي جاءت بهذا التصريف.

ولو انتقلنا الى تصريف الجمع نجد أيضاً أنه وجه الى عموم الناس، حيث قال تعالى: ﴿وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[البقرة: 221]. وفيها أن الله يأتي بالآيات لكي يتذكرها الناس. ويتأملوا ما فيها، ويعملوا فكرهم في ما جاءت به من عبر، من خلال إدامة تذكرها وعدم نسيانها، مما يجعلهم يعتبرون بما فيها وبما جاءت من أجله. وهذا أيضا من أسباب زيادة الياء قبل التاء؛ لأن الزيادة في المبنى غالباً تفيد الزيادة في المعنى، ومما يؤكد هذه الزيادة أنها أتت في جميع سياقاتها عامه. وهذا ما أشار اليه السامرائي بأن التذكر يكون في كل ما يمر به؛ للخلوص إلى موطن الحكمة والاتعاظ، وكل ذلك يحتاج إلى طول تذكر وتأمل ومحاكمة عقلية، فاستعمل (يتذكرون) له.

أما مع الوضوح والمقام الذي لا يحتاج إلى تطويل أو تفصيل، فأتت الصيغة بالتضعيف دون زيادةٍ في المبنى؛ حيث قال تعالى: ﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾[الأنعام: 126]؛ فهنا أتت الأمور واضحة لا تحتاج إلى طول تذكر وتفصيل؛ لأن صراط الله واضح، وآياته مبينةٌ مفصلةٌ لا تحتاج إلا إلى العمل ومداومته والإكثار منه[2].

قال الطبري: (لقومٍ يذكرون لمن يتذكر ما احتج الله به عليهم من الآيات والعبر فيعتبر بها، وخص بها الذين يتذكرون؛ لأنهم أهل التمييز والفهم، وأولو الحجا والفضل)[3].

ويأتي توجيه آخر للناس عامة مع الزيادة في المبنى أيضاً؛ ليعتبروا مما ذكر الله لهم، فكان هذا مفصلاً مطولاً يحتاج إلى إطنابٍ وزيادةٍ في التذكر والتأمل، متناسقاً مع سياق الآية؛ حيث قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ شَفِيعٍ أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ (4) يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاء إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾[السجدة:5].

([1]) الزمخشري، **الكشاف**، ج1، ص316.
([2]) السامرائي، **بلاغة الكلمة في التعبير القرآني**، ص56.
([3]) الطبري، **تفسير الطبري**، ج12، ص 113.

وفي هذه الآية جاء الطلب من الناس كذلك بتذكر هذا الخلق العظيم ومن يدبره ويسير أموره، وكيف أن ذلك يدعوكم إلى الاعتبار وإفراده بالعبادة سبحانه وتعالى. قال سيد قطب:(هذه السورة المكية نموذجاً آخر من نماذج الخطاب القرآني للقلب البشري بالعقيدة الضخمة التي جاء القرآن ليوقظها في الفطرة، ويركزها في القلوب)[1]، وكل هذه المعارض والمشاهد تواجه القلب البشري بما يوقظه ويحركه ويقوده إلى التأمل والتدبر. وقد وردت هذه الدلالة في نفس السياق في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾[يونس: 3]. وبنفس التوجيه طالبتاً التذكر للاعتبار كما قال الطبري: (أفلا تتعظون وتعتبرون بهذه الآيات والحجج، فتنيبون إلى الإذعان بتوحيدِ ربكم وإفراده بالعبادة، وتخلعون الأنداد وتبرؤون منها؟)[2]. ولكن أتت بحذف التاء في «تذكرون»، والسبب في ذلك أنه فصل في سورة السجدة ما لم يفصله في سورة يونس[3]. فناسب السياق أن تأتي التاء محذوفةً من فعل التذكر.

وبعد أن بينا بعض دلالات التذكرة في صيغ الافعال، فإني أود أن أبين المواطن التي جاء فيها اسم دلالة التذكرة وهي (ذكرى)، وعلاقتها في الاعتبار، حيث عند تتبعي لهذا الاشتقاق؛ وجدت جميع الدلالات التي جاءت بالتعريف، جميعها موجهه للنبي صلى الله عليه وسلم، ماعدا موطن واحدٍ جاء الخطاب فيه موجهاً لكافة الناس.

أما فيما يخص النبي صلى الله عليه وسلم فقد جاء هذا التعريف بـ (ال) إما بالعهد الصريح أو العهد الكنائي. وفيما يخص العهد الصريح قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[الذاريات: 55]. وقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى﴾[الأعلى: 9]. وقوله تعالى: ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى﴾[عبس: 4]. وهذه فيها دعوة إلى الاستفادة والاعتبار من التذكرة التي يقولها النبي صلى الله عليه وسلم، وكان طلب الاعتبار منها مباشرا صريحاً كما جاء معرفاً صريحاً. ولو أن الآية التي في سورة عبس كانت خاصة في حادثة خاصة، إلا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب؛

([1]) سيد قطب، ابراهيم حسين الشاربي(ت 1385هـ)، **في ظلال القران**، ط السابعة عشر، 30م، دار الشروق، بيروت - القاهرة، 1412هـ، ج5، ص2802.

([2]) الطبري، **تفسير الطبري**، ج15، ص19.

([3]) السامرائي، **بلاغة الكلمة في التعبير القرآني**، ص25.

فالتوجيه يؤخذ منه أن التذكرة فيها اعتبار. ولعل وجه إتيانها بأ(ال) التعريف: أن النبي صلى الله عليه وسلم هو أكثر إنسان يعتبر ويتذكر بما جاء بالقرآن؛ لأنه أنزل على قلبه، وأمر أن يبلغه للناس كافة، والله أعلم.

وأتت معرفة في المواطن الثلاثة الأخرى بـ(ال) التي للعهد الكنائي، وكانت في موطنين منها موجهةً للنبي صلى الله عليه وسلم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[الأنعام: 68]. فهنا بيان أن التذكرة تدعو إلى الاعتبار، وهي كفيلة بأن الذي يتذكر بما ذكر به سينجو بهذه التذكرة. وجاءت في موطن عدم القعود؛ لأن مفارقة الكفار وتركهم من تذكر أمر الله[1]. وجاءت كنائية؛ لأن الآيات السابقة دلت على هذه التذكرة.

وفي الموطن الثاني الذي قال في الله عز وجل: ﴿أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾[الدخان: 13]. وفيه أيضا خطاب موجهٌ إلى النبي صلى الله عليه وسلم مع تعريف التذكرة بالكناية أيضاً؛ لأنه سبق التدليل عليها في بداية السورة من ذكر للكتاب ولأمر إنزاله، وهو الذي جاءت به كل التوجيهات والتذكرة.

أما في الموطن الأخير؛ فكان موجهاً لجميع البشر، ومعرفاً أيضاً حيث قال تعالى: ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾[الفجر: 23]. وفيه دلالة على يقين هذه التذكرة وثبوتها لديهم، لكن في يوم لا ينفعهم هذا اليقين. وفيه دلالة أيضا على الاعتبار؛ لأن الإنسان إذا اعتبر بما جاءه من التذكرة سينجو من النار يوم القيامة.

وللتأكيد أيضا على العلاقة بين التذكرة والاعتبار: فإن دلالة التذكرة بلفظ ذكرى أتت دالة على صفه للأنبياء لأنهم هم أكثر من يعتبر بالتذكرة التي جاءتهم أو وجهت إليهم، كما قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ

([1]) الطبري، **تفسير الطبري**، ج 11، ص 439.

عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الأَيْدِي وَالأَبْصَار * إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّار﴾[ص: 45 - 46]

فجعل الله سبحانه وتعالى من أسباب خلاصهم من الدنيا وتعلقهم بها تذكرهم الدائم للدار للآخرة، وأنها كانت هي شغلهم الشاغل؛ فهذا جعلهم لا يتعلقون بغيرها إرضاء لله سبحانه وابتغاءً لدخول جنته، ولهذا يقول ابن عاشور: إن الباء في «بخالصة» هي للسببية أي بيان سبب عصمتهم من التعلق بالدنيا[1].

وكذلك أتت بعض الدلالات موجهة للمؤمنين، ومبينة أيضاً علاقتها بالاعتبار، وكيف أن الله امتدحهم بأخذ العبرة كلما تذكروا الآيات والعبر التي مرت بهم؛ فمنها قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِين﴾[هود: 114] وهنا في هذا الموطن تأكيد للنبي عليه الصلاة والسلام أن هذه التذكرة لا يستفيد منها ويعمل بها معتبر بما جاء فيها إلا المؤمنين الذين يتبعون أوامر الله سبحانه؛ فلذلك جاءت موجهة لهم دون غيرهم من الناس، حيث قيل: إن قوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِين﴾[هود: 114]. قال ابن عاشور:(أي تذكرة للذي شأنه أن يذكر، ولم يكن شأنه الإعراض عن طلب الرشد والخير)[2].

وجاءت في موطنين في القرآن موجهة للكافرين نافية عنهم الذكرى بحالهم و مصيرهم يوم القيامة، وأنهم لم يستفيدوا من هذه التذكرة، كما قال تعالى: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا * الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاء عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لاَ يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾[الكهف: 100 - 101] وكان سبب توجيهها لهم في الآخرة التأكيد على عدم استفادتهم منها في الدنيا، وعدم الاعتبار بما جاءتهم به من تذكرة. وقيل: عرضنا جهنم يومئذ للكافرين الذين كانوا لا ينظرون في آيات الله، فيتفكَّرون فيها ولا يتأمَّلون حججه، فيعتبرون بها، فيتذكرون وينيبون[3].

([1]) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج23، ص277.
([2]) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج12، ص 181.
([3]) الطبري، **تفسير الطبري**,ج18,ص123.

ووردت دلالة التذكرة على علاقتها بالاعتبار في إيراد قصة هلاك الكافرين المعرضين كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ لَهَا مُنذِرُون * ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِين﴾[الشعراء: 208 - 209]؛ ففيها تأكيد على هذه العلاقة، بأن نتيجة عدم الاعتبار بالتذكرة التي تأتي من عند الله هي الهلاك والعذاب الأليم يوم القيامة، كما أن عدم الاعتبار بهذه التذكرة التي كانت نتيجتها الهلاك تذكرة وعبرة للأمم اللاحقة لاستفادتهم من التذكرة التي دعوا إليها والاعتبار به. يقول الزمخشري: (وما أهلكنا الظالمين إلا بعدما ألزمناهم الحجة بإرسال المنذرين إليهم، ليكون إهلاكهم تذكرة وعبرة لغيرهم، فلا يعصوا مثل عصيانهم)[1].

ومما تقدم يتبن لنا العلاقة بين التذكرة والاعتبار بأنها علاقة لزوم شرطي، وأنها سبب في إعمال الناس لعقولهم والتفكير بما يمر بهم من عبر، وتأملها من خلال إدامة تذكرها مما يؤدي إلى الاعتبار.

([1]) الزمخشري، **تفسير الكشاف**,ج3,ص338.

المطلب الثاني: تعريف الموعظة وعلاقتها بالاعتبار

أولاً: تعريف الموعظة

الموعظة من (وعظ)، قال ابن فارس:(الواو والعين والظاء في كلمة واحدة والاسم منه العظة والموعظة ويراد منه التخويف)[1].

والوعظ: تذكير الناس إلى ما يلين قلوبهم من ثواب وعقاب ونصحهم، ومنه قيل: «السعيد من وعظ بغيره، والشقي من اتعظ الناس به»[2].

وهذا ما ذهب إليه عامة أهل اللغة، من أنه التذكير والتخويف والإنذار والنصح، والإرشاد إلى الخير بما يرقق القلب وعدم حصول العقاب.

قال الراغب الأصفهاني:(أن الوعظ زجر مقترن بتخويف)[3].

وقيل: إن الهاء في «موعظة» ليست للتأنيث؛ لأنه غير حقيقي، وذكر قوله تعالى: ﴿ فَمَن جَاءهُ مَوْعِظَةٌ﴾[البقرة: 275].

ولها عدة تصريفات هي:

أ- واعظ: يقصد بها الإنسان الذي يقوم بالنصح والتحذير لغيره وجمعه وعاظ، وهذا الذي يستحب أن يقوم به كل مسلم. لأن بعضهم قال: إن الموعظة أو العظة هي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[4].

ب- «اتَّعظ»: يراد منها قبول العظة والعمل بها، ويقال: الرجل يتعظ؛ إذا قبل الموعظة حين يذكر الخير، مما يرق له قلبه، يقال: وعظته عظة، ومن أمثالهم المعروفة: لا تعظيني وتعظعظي؛ أي: اتعظي ولا تَعظي[5].

ج- وعِظ: أي: قُدمت له النصيحة من الواعظ، ولا يقال له: متعظ أو اتعظ، إلا إذا قبل هذه الموعظة وعمل بها، ولذلك يقال لمن لا يتعظ ويستفيد من هذه الموعظة: «له قلبٌ أقلف»: إذ لم يع خيراً، كأنه مغشي مغطى، لا يدخله وعظ[6].

([1]) ابن فارس، **مقاييس اللغة**,ج6، ص 126.
([2]) ابن منظور، **لسان العرب**,ج7، ص 466.
([3]) الراغب الاصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، ج1، ص876.
([4]) ابراهيم مصطفى وآخرون، **المعجم الوسيط**، ج1، ص195.
([5]) الازهري، **تهذيب اللغة**، ج3، ص93.
([6]) الازهري، **تهذيب اللغة**، ج9، ص135.

ومما تقدم يرى الباحث: أن الوعظ هو النصح والتخويف بالتذكير بالعواقب بما تلين به قلوب الناس، ولا أرى أن يكون فيه اقتران بزجر؛ لأن الله سبحانه وتعالى استخدمه في توجيه أنبياءه، وكذلك بالدعوة إلى الله فلا يمكن أن توصف الموعظة بالحسنة ويقترن فيها زجر، والله اعلم.

ثانياً: علاقة دلالة الموعظة بالاعتبار

إن دلالة الموعظة في القران تتغير صيغها ومبانيها من موطن إلى آخر. و كل موطن من هذه المواطن فيه تأكيد على علاقة الموعظة بالاعتبار. لأن إتيان الموعظة ـ كما سبق ـ يكون لأجل الأخذ بها، والاعتبار بما جاءت من اجله.

فعند تأمل هذه المواطن نجد أن الدلالات التي أتى فيها ذكر الموعظة، جاءت متنوعة حيث وجدت أن بعض هذه الدلالات جاءت مرة واحدةً عندما كانت موجهٌ إلى أمر خاص محدد، كما في قصة نوح عليه السلام بحيث جاءت الموعظة من الله سبحانه إلى نبيه عليه السلام. كما في قوله تعالى: {قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ}[هود: 46]. فيتضح جلياً بالتوجيه من الله سبحانه إلى نبيه نوح عليه السلام عندما سأل عن مصير ابنه عندما أغرق الله الكافرين، وكان هذا السؤال من باب الشفقة والرحمة والخوف على ابنه أن يكون مصيره كمصير بقية الذين كفروا من قومه. أن هذا التوجيه في هذه الموعظة كان ليعتبر بما جاءه من توجيهات ربانية. وتنبيهاً له من ان يكون من الجاهلين الذين لا يعلمون. وليعتبر أن كل ما يحصل هو بمشيئة الله وحدة وتدبيراً منه سبحانه. وبما أن الأنبياء هم أكثر الناس اتباعاً وطاعةً لله، كان اتعاظهم أسرع واعتبارهم مباشر، ومما يؤكد على علاقة الموعظة بالاعتبار وأنها جاءت للاعتبار، وصفه سبحانه لحال نوح عليه السلام بعد أن جاءته الموعظة؛ حيث قال تعالى: {قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ}[هود: 47]. فهنا بين الله تعالى أن نوحاً عليه السلام قد تنبَّه إلى ما أرشده إليه ربه، فبادر بطلب العفو والصفح منه سبحانه اعتباراً بها[1]. وقال الزمخشري في هذه الآية:(أن أسئلك من أن أطلب منك في المستقبل ما لا علم لي بصحته، تأدباً بأدبك واتعاظاً بموعظتك)[2]. وقال الطبري: (وكذلك فعلُ كل مسدَّد للحق موفَّق له، سريعة إلى الحق إنابته، قريبة إليه أوبته)[3].

([1]) طنطاوي، محمد سيد(ت 1431هـ)، **التفسير الوسيط للقرآن الكريم**، ط الأولى، 15م، دار النهضة، القاهرة، 1997/ 1998م، ج7، ص215.

([2]) الزمخشري، **الكشاف**، ج2، ص400.

([3]) **تفسير الطبري**، ج1، ص492.

ولذلك نجد أن دلالة الموعظة جاءت في بعض المواطن مخبرةً عن الحال وهذا فيما يتعلق بحال الصالحين والموفقين للنصح لطاعة الله، وفيها بيان لأهميتها في الاعتبار بما يأتي بها من توجيه، كما ذكر الله لنا ما فعل لقمان الحكيم مع ابنه عند توجيهه إلى فعل الخير، في قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}[لقمان:13]. فهذا فيه بيان لحال لقمان لأبنه وهو يعظه تنبيه الى الانتفاع بهذه الموعظة واعتباراً بحال اولئك الصالحين ونصحهم قال الطنطاوي:(أي اذكر- أيها العاقل- لتعتبر وتنتفع، وقت أن قال لقمان لابنه وهو يعظه، ويرشده إلى وجوه الخير بألطف عبارة)[1]. كما يتبين أيضا من هذا الخطاب الخاص بين الوالد وابنه؛ وهو توجيهٌ إلى عموم المصلحين الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر وعلى رأسهم سيدنا وحبيبنا محمد صلى الله عليه وسلم بأن يعظوا الناس بالخير ليعتبروا. فمن روعة هذا الكتاب الكريم أنه يذكر القصة الخاصة أو الحادثة الخاصة وتكون عامة في معناها متعدية إلى البشرية عامه.

كما وجدتها في بعض المواطن تأتي بصيغة الفعل المضارع بنوعيه، بحيث أتت مرة للغائب ومرة للحاضر؛ وذلك للاستمرارية بالاعتبار بهذه المواعظ؛ لأن المؤمن يجب أن يكون مداوماً على اخذ العبر والعمل بكل ما يأتيه من الله. وكذلك بما يناسب السياق، حيث ذكرت دلالة الموعظة بصيغة المضارع لدلالة على الغائب عندما كان الكلام متعلقاً بالمنافقين؛ حيث قال تعالى:(وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُواْ مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا)[النساء: 66]. لأن حالهم وغيابهم عن الاعتبار بمواعظ الله ناسب أن تكون مخاطبتهم بمخاطبة الغائب، ولأن الضمير في «ولو أنهم» مختص بالمنافقين[2]، وقد بين السامرائي أن دلالة الموعظة تفيد المضي والاستمرار عندما جاءت مع (لو) الشرطية[3]. كما أن فيها دلالة على أن الاعتبار بالمواعظ يجب أن يكون مستمراً دائماً. ففي هذا الموطن بيان أيضاً لعلاقة هذه الدلالة بالاعتبار، وهو الشرط في جعل الخير والتثبيت منوطاً بالاعتبار بهذه المواعظ.

أما عن الموطن الذي جاء بالمضارع الحاضر؛ فكان موجهاً للمؤمنين لأنهم هم الذين يأخذون بهذه المواعظ ويعتبرون بها، فقال تعالى: {ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}[المجادلة: 3]. ومما يؤكد هذه الدلالة وأنها موجهة للمؤمنين ولذلك خوطبوا بخطاب الحاضر، التعقيب الذي أتى بعد هذه الموعظة وما ترتب عليها من كفارة حيث قال تعالى:(ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ

([1]) سيد طنطاوي، **التفسير الوسيط**، ج11، ص118.

([2]) ابوحيان، **البحر المحيط**، ج3، ص697.

([3]) السامرائي. فاضل صالح، **معاني النحو**، الطبعة الخامسة، 2م، دار الفكر للنشر، عمان - الاردن، 1432هـ/2011م، ج3، ص286.

حُـدُودُ اللَّـهِ وَلِلْكَـافِرِينَ عَـذَابٌ أَلِيمٌ),[المجادلـة:4]. فهـذا خطـابٌ وجـه للمـؤمنين بالأخـذ بالموعظـة والاعتبار بها. حيث اشار الطبري أن هذا الامر الذي أوجبه الله بهذه العظة هو أن لا يعود الإنسان إلى ما نهي عنه ويعتبر بما جاءه من الموعظة[1].

وعند انتقالي إلى موطن آخر وروعة من روائع هذا القرآن العظيم فيما يتعلق بالموعظة؛ وجدت أنه سبحانه يبين أن هذه الموعظة ليس بالضرورة أن يستمع لها كل البشر حتى لا ييأس الواعظون والداعون إلى طاعة الله، ولكن فيه تأكيد أيضاً على هذه العلاقة. فلو نظرنا إلى قولة تعالى في استفهام التسوية حيث قال تعالى: {قَالُوا سَوَاء عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِين}[الشعراء: 136]. وكان هذا رد قوم هود عليه السلام عندما جاءهم بالموعظة طالباً منهم الاعتبار بما قال لهم لكي لا يحل عليهم غضب الله عز وجل. ففيه دلالة أيضا على هذه العلاقة، كما قال الشعراوي: (علموا أن هذا الوعظ المراد منه الاعتبار به، والرجوع عما كانوا يفعلون من مخالفة لأمر الله سبحانه وتعالى. وهو دليل على اعترافهم أنهم علموا المطلوب منهم، ولذلك لم يقولوا أوعظت أم لم تعظ، إنما قالوا (لم تكن من الواعظين) وكأنهم لا يريدون مسألة الوعظ نهائياً، وحتى في المستقبل)[2]. وقال الزمخشري: (وهناك من يعتقد أنه لو قيل: أوعظت أم لم تعظ أخصر. والمعنى واحد. وهذا غير صحيح والمعنى ليس بواحد؛ لأنّ المراد: سواء علينا أفعلت هذا الفعل الذي هو الوعظ، أو لم تكن أصلاً من أهله ومباشريه، فهو أبلغ في قلة اعتدادهم وعدم اعتبارهم بوعظه من قولك: أم لم تعظ)[3]. وكأنه سبحانه يوجه ويبين أن الموعظة المراد منها الاعتبار، ولكن من الناس من قد طبع على قلوبهم عن الاستفادة من النصح والإرشاد إلى الحق، فلا تيأس أيها القائم على هذه الموعظة.

ومما يوكد هذا المعنى ذكره للموعظة معرفةً في موطن واحد فقط والمراد منه بيان أن الموعظة هي السبيل إلى دعوة الناس إلى عبادته ونيل رضاه وغفرانه كما قال تعالى: {ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِين}[النحل: 125]. ولذلك قيل: حذف مفعول (ادع) لقصد التعميم، أو لأن الفعل نزل منزلة اللازم، لأن المقصود الدوام على الدعوة لا بيان المدعوين؛ لأن ذلك أمر معلوم من حال الدعوة[4]. فالموعظة هي العبر الجميلة التي جعلها الله في كتابه حجةً عليهم[5]. وفيها بيان أنه

([1]) الطبري، **تفسير الطبري**، ج23، ص231.
([2]) الشعراوي، محمد متولي(ت 1418هـ)، **تفسير الشعراوي- الخواطر**، 20م، مطابع أخبار اليوم-1997م، ج17,ص10640.
([3]) الزمخشري، **الكشاف**,ج3,ص327.
([4]) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**,ج14,ص327.
([5]) الطبري، **تفسير الطبري**,ج17,ص321.

لا يمكن أن يُنال هذا الفضل إلا من خلال اعتبارهم بما جاء فيها من نصح وإرشاد، ولذلك عقب سبحانه وتعالى بقوله: {إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ}[النحل: 125].

وقيل: إن مخاطبة الله للرسول صلى الله عليه وسلم بهذا الأمر دليل على أن صيغة الأمر مستعملة في الدوام على الدعوة إلى الاسلام[1]. والموعظة الحسنة هي مواعظ القرآن ورقائقه، والخطابات المقنعة، الميسرة التي تكون أنفع في قبول هذه المواعظ والاعتبار بها[2]. وهذا ما أكدته صيغة العطف، حيث وجدت أن دلالة الموعظة قد ذكرت معطوفةً في بعض المواطن، ومقترنةً بفئةٍ واحدةٍ من الناس وهم المتقون، لأنهم هم الذين ينتفعون ويتعظون ويعتبرون بما جاء به الكتاب الكريم؛ خوفاً واتقاءً لله سبحانه وتعالى. كما في قوله تعالى:{فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ}[البقرة: 66]. وقوله تعالى: {هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ}[آل عمران: 138]. وقوله تعالى:(وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ)[المائدة:46]. وقوله تعالى:(وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ)[هود:120]. وقوله تعالى:(وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ)[النور:34].

ففي هذه الآيات بيان أن الذين ينتفعون بالمواعظ والتذكير والإرشاد هم المتقون، دون سواهم من الغافلين عن الموعظة التي جاءتهم من الله سبحانه وتعالى. ولذلك بين أبو العباس أن المراد فيها هو إرشاد وتذكير للمتقين لأنهم هم الذين ينفع بهم الوعظ والتذكير[3]، يقول أبو السعود: (لأنهم هم المهتدون بهداه المنتفعون المعتبرون بما جاءهم من الهدى)[4]. وقال ابو حيان: (المراد المتقون من أمة محمد صلى الله عليه وسلم، وبما أنه بياناً تنبيهاً للمكذبين فهو زيادة تثبت وموعظة للذين اتقوا من المؤمنين)[5]. ونقل الطبري عن ابن عباس أنه يقول: (تذكرة وعبرة للمتقين)[6]. إنهم الذين يعتبرون بما جاءهم من الحق، ولذلك وصفوا بقبولهم للموعظة والاعتبار بما فيها.

أما عندما أتت دون عطف؛ جاءت في جميع مواطنها عامة لكل الناس، وكذلك يراد منها اخذ العبرة والاعتبار بما جاء فيها فمن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: { فَمَن جَاءهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىَ

([1]) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**,ج14,ص325.

([2]) ابوالعباس الفاسي، احمد بن محمد بن المهدي(ت 1224هـ)، **البحر المديد**، الطبعة الثانية، 8م، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002م/1423هـ,ج4، ص95.

([3]) ابوالعباس الفاسي، **البحر المديد**,ج2,ص256.

([4]) أبو السعود، **إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم**، ج3، ص43.

([5]) ابوحيان، **البحر المحيط**,ج3,ص352.

([6]) الطبري، **تفسير الطبري**,ج2,ص181.

فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُون}[البقرة: 275]. فعند تأملها وجدت أن الأمر فيها عاماً، وذلك بقوله سبحانه (فمن جاءه)؛ فهذه تفيد أن كل من تأتيه هذه الموعظة عليه أن يمتثل لأمر الله ويعتبر بما جاءه فيها من توجيه. ومما يؤكد على عموم هذه الموعظة السياق التي جاءت به؛ ففي مقدمتها تتحدث عن عامة البيوع وفي الاستئناف بعدها. فالذي جاء بعدها استئناف بياني لتوقع من يسأل عن حال هؤلاء الذين جاءتهم الموعظة[1]. وكذلك في قوله تعالى:(وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ)[الأعراف:145]. فهنا في هذه الآية الكريم بيان أن الموعظة أيضاً لعموم الناس جاءت وذلك بدلالة (وأمر قومك يأخذوا بأحسنها) فهي ليست لموسى وحدة بل لقومة أيضاً، قال الزمخشري:(والمعنى كتبنا له كل شيء كان بنو إسرائيل محتاجين إليه في دينهم من المواعظ وتفصيل الأحكام)[2]. وتدل على العموم أيضاً في قوله تعالى:(يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ)[يونس:57]. حيث في هذا الموطن كان الخطاب مباشر لجميع الناس، قال ابن عطية:(هذه آية خوطب بها جميع العالم)[3].

ومما وجدته في صيغ الموعظة أن هناك لفظاً واحداً لدلالة الموعظة متعلق بدلالة الاعتبار، وهي كلمة (يعظكم) حيث ذكرت في القرآن أربع مرات، وجاءت بعدة صيغ بحسب السياق التي جاءت فيه، حيث جاءت مرةً بصيغة الاستئناف، كما في قوله تعالى:(يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُؤمِنِينَ)، [النور,17]. فهذا الاستئناف من الله بطلب أخذ العظة والاعتبار بما سبقه من نهي في الآيات التي قبلها، ثم جاء هذا الاستئناف ليؤكد على الاعتبار به. ومما يدلل على هذه الدلالة أنها جاءت للاعتبار، التعقيب الشرطي الذي جاء في نهاية الآية بقوله:(إِن كُنتُم مُؤمِنِينَ).فهذا الشرط كأنه جاء تعقيباً على هذه العظة؛ بأن لا يعتبر بما جاء فيها إلا من كان مؤمناً وليس المقصود نفي الإيمان عنهم، يقول ابن عاشور: (لا يقصد من هذا الشرط التعليق اذ ليس المعنى ان لم تكونوا مؤمنين عودوا لمثله ولكن لما كان احتمال حصول مفهوم الشرط مجتنباً كان في ذكر الشرط بعث على الامتثال)[4]. وفيها أيضا دلالةً على ما مر بنا بأن دلالة الموعظة دائما تأتي مرتبطةً بالمتقين الذين لن تحصل لهم التقوى إلا بالإيمان، وأما عن سبب هذا الشرط فقال أبو العباس الفاسي: إن سبب هذا التعقيب هو تهييج وتقريع وتذكير بما يعين على الأخذ بهذه الموعظة والاعتبار بها ففيه

([1]) ابن عاشور، **التحرير والتوير**,ج3,ص91.

([2]) الزمخشري، **الكشاف**، ج2، ص158.

([3]) ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب الأندلسي(ت 542هـ)، **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، ط الأولى، 5م، (تحقيق: عبد السلام عبد الشافي)، دار الكتب العلمية، لبنان، 1413هـ -1993م

([4]) ابن عاشور، **التحرير والتوير**، ج18، ص182.

تدليل على أن الذي يعين على الاعتبار هو الإيمان بالله؛ لأنه هو الصاد عن كل قبيح)[1]. يقول الشنقيطي: تدليلاً على هذا الشرط ونظيره في القران قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالغَيْبِ﴾[فاطر: 18]. ولذلك خصهم الله بالإنذار؛ لأنهم هم المنتفعون بما جاء فيها مع أن النبي صلى الله عليه وسلم جاء نذير لجميع الناس[2].

وقد جاءت أيضاً هذه الدلالة بنفس اللفظ ولكن بصيغة الإخبار عن الحال، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ ﴾[البقرة: 231]. قيل: إن جملة (يعظكم به) حال، ويجوز أن تكون خبراً للجملة التي قبلها، وأن في هذه الصيغة بيان لحال من جاءتهم هذه الموعظة بعد ما جاءهم من التوجيه من الله سبحانه في كتابه العزيز من تعاليم الدين التي يستفيدون منها ويعتبرون بها. قيل: الحكمة هي العلم المستفاد من الشريعة والعبر من قصص الأمم السابقة كما وذكرها بعد إنزال الكتاب أنها حاصلة من آيات الله[3]. فهنا دلالة الموعظة مرتبطة بما جاء بالكتاب الذي ينتج عنه الحكمة التي هي الاعتبار بما وعظ الله به.

أما في إتيانها بصيغة المدح وحذف هذا المخصوص بالمدح، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾[النساء: 58]. أي: نعم الشيء الذي وعظتم به وهو أداء الأمانات والعدل في الحكم. فمجيء مواعظ الله بالعموم، يتناسب مع هذا الحذف ؛ لأنها جميعها نعمٌ منه سبحانه وخير، فالسبب في عدم تخصيص موعظة دون أخرى، لكي تكون عامة لكل ما وعظ الله به، ليرى الله من يتبع أوامره ويعتبر بما جاءه من المواعظ، ممن ينكرها، ولذلك أتى بعدها ذكر صفة السمع والبصر؛ للتأكيد ـ بعد هذه المواعظ التي مدحها الله لهم وأنها خير لهم ـ على أنه سبحانه يسمع ويرى ما يفعل الناس حيال أوامره ونواهيه والله اعلم.

ولو قيل: إن المراد بهذا الشيء الممدوح هو أداء الأمانة والعدل في الحكم بين الناس، وهذا ما نزلت الآيات من أجله، وهذا ظاهر الآية؛ فهو صحيح، ولكن الأمانة ليست مخصوصة في شيء

([1]) الزمخشري، **الكشاف**، ج3، ص221.

([2]) الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار(ت 1393هـ)، **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، 7م، دار الفكر للطباعة والنشر، لبنان 1415هـ / 1995م، ج5، ص536.

([3])ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج2، ص425.

معين، بل في جميع تكاليف الدين هي أمانة، لقوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾[الأحزاب: 72]. وكذلك العدل في الحكم يجب أن يكون عاماً في جميع الأحكام. فقد ذكر الالوسي في قوله: {نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ } أنها متضمنة مزيد من اللطف بالمخاطبين لاستدعائهم الامتثال لهذه الموعظة التي يجوز أن يكون فيها المدح لأي شيء توعظون به[1]. وعليه فإن المدح لهذه المواعظ من البواعث على الاعتبار بها.

فعند تأملي لجميع الدلالات التي جاءت فيها الموعظة، وجدت أنها تدعو الاعتبار من خلال الإرشاد والنصح والتحذير والترغيب والترهيب، فكل هذه المعاني التي تشملها دلالة الموعظة تدعو إلى الاعتبار بما جاءت من أجله.

([1]) الألوسي، شهاب الدين محمود بن عبدالله الحسيني(ت 1270هـ)، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، ط الأولى، 16م، تحقيق علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، 1415هـ، ج3، ص63.

المطلب الثالث: الفكر وعلاقتها الدلالية بالاعتبار

أولاً: تعريف الفكر

«فكر» الفاء والكاف والراء: تردد القلب في شيء، ومنه التفكر؛ أي: مردداً ذلك الشيء في قلبك معتبراً به[1]. وفي لسان العرب: الفَكر والفِكر جميعها إعمال الخاطر في الشيء، وجمعه أفكاراً والفكرة كالفكر، وأفكر فيه وتفكر بمعنى واحد، والتفكر اسم للتفكير، والتفكير هو التأمل، والاسم منه الفكر والفكرة والمصدر الفَكر، ولذلك يقال: ليس لي في الأمر فكر؛ أي: حاجة[2]. قال الزمخشري: (لا فكر لي فيه؛ هذا إذا لم تحتج إليه، ولم تبال به، وما دار حوله فكري)[3]. ولذلك يقال: كراعي خيال يستطيف بلا فكر أي يهيم على وجهه لم يفكر أين هو ذاهب أو بدون تفكير لما يريد أن يفعل[4]. وفي المحيط: الفكر هو النظر في الأمور وقياسها[5]. ومنه تقليب الفكر؛ وهو الحذق في تدبير الأمور، والإمعان في التدبر، ومنه يقال ضرب أخماس في أسداس؛ أي: جمع حواسه الخمسة في جهاته الستة؛ كناية عن استجماع الفكر للنظر فيما يريد. ويقال: ارتأى؛ أي فكر بتأنٍّ[6]. وعند ابن سيدة: (الفكر: شدة التدبير في الشيء، ولزوم العمل له)[7]. والفكرة: هي الأداة إلى الوصول إلى المعلوم، ومنه التفكر أيضاً؛ وهو إجالة النظر في العقل وقيل: هذا لا يمكن أن يكون أي إجالة النظر إلا أن تكون له صورة في القلب يستمد منها هذا التفكير في الشيء، ولذلك قيل الفكرة قوة للعلم إلى المعلوم، والتفكير: جولان تلك القوة في العقل، ومنه يقال: رجل فكير؛ أي: كثير التفكر وإدامة النظر في الأشياء. وقد ذكر الراغب: إن الفكر هو مقلوب الفرك؛ لأن الإنسان يفرك الأمور للبحث عن ما يريد التوصل إليه من الحقائق[8].

وذكر في البصائر: أن الفكرة فكرتان: فكرة تتعلق بالعلم والمعرفة، وفكرة تتعلق بالطلب والإرادة؛ فالتي تتعلق بالعلم والمعرفة، هي التي تكون بالتمييز بين الحق والباطل والثابت والمنفي، والتي متعلقة بالطلب والإرادة؛ هي التي تميز بين النافع والضار، ثم يترتب على ذلك فعل ما كان

([1]) ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، ج4، ص446.
([2]) ابن منظور، **لسان العرب**، ج5، ص65.
([3]) الزمخشري، **أساس البلاغة**، ج2، ص352.
([4]) الجوهري، **الصحاح للجوهري**، ج2، ص347.
([5]) الفيروزآبادي، **القاموس المحيط**، ج1، ص458.
([6]) الزبيدي، **تاج العروس في جواهر القاموس**، ج28، ص368، ج35، ص439، ج38، ص109.
([7]) ابن سيدة، **المخصص**، ج3، ص326.
([8]) الراغب الاصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، ج1، ص643.

نافع والابتعاد عن ما يضر[1].

ولذلك يقولون: إن الفكر هو يد النفس التي تنال بها المعلومات[2]. وفكر أي اعمل عقله في المشكلة ليتوصل إلى حلها ويقال له أيضاً التفكير، ويقال له: استنبط أو اجتهد، وهو فضيلة العقل؛ لأنه يعصم الذهن من الخطأ، وهو المنطق، ولذلك يقال للرجل: يقظان الفكر من اليقظة وإعمال الفكر[3].

والفكر هو الروية وإطالة التفكير في الشيء، وجعلوه الفارق بين كثير من المعاني فقد فرقوا بين البديهة والنظر بالفكر؛ فإذا قيل: له نظر؛ أي: فكر، أما ما كان بديهياً، يقولون: بدون فكر، وفرقوا بين الكيد والخديعة أيضاً بالفكر؛ فجعلوا الكيد بتفكير وتدبير، والخديعة تكون بلا فكر، وجعلوا في الفروق: أن العمل يكون بفكر والفعل والصناعة لا تكون بفكر [4].

وقد فرق أهل اللغة بالفكر بين قسمي العلم حيث جعلوا العلم الضروري هو الذي يكون بلا فكر أما الاكتسابي فهو الذي يكون بفكر.

قال أبو البقاء:(الفكر هو المرتبة الثالثة بين مراتب الفعل، سواء خيراً أو شراً، وهي السانح، ثم الخاطرة، ثم الفكرة، ثم الإرادة، ثم الهم ثم العزم)[5].

وفي المجاز: يقال: إذا خالج قلب الإنسان أمر يقول: نازعني فكر، ومنه أيضاً يقال للرجل: متهور؛ أي: يقع في الأمور دون فكر، ويقال له: رمى الكلام على عواهنه؛ أي: من غير فكر[6].

فمما تقدم يرى الباحث إن الفكر: هو التأمل والتدبر في جميع ما يمر على الإنسان من الأمور، ويكون بروية وتأنٍّ وإعمال للعقل، وبالنظر المستفيض فيها للوصول إلى الغاية منها ليعتبر بها.

ثانياً: علاقة دلالة الفكر بالاعتبار

إن المتأمل في بديع كتاب الله يجد فيه من الأساليب البلاغية، ما يجعل الفكر يتدبر ويتفكر في هذا الأسلوب العجيب، وكيف تم نظمه في هذا السكب الرائع، والرونق الجميل، حيث إن دلالة الفكر جاءت بصيغتين فقط في القرآن: واحدة في الماضي، والأخرى في المضارع، والتي في الماضي

([1]) الفيروزآبادي، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب(ت 817هـ)، **كتاب بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز**، 6م، (تحقيق محمد علي النجار)، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية-لجنة إحياء التراث الاسلامي، ج4,ص212.

([2]) زين الدين محمد، **التوقيف على مهمات التعريف**,ج1، ص104.

([3]) ابراهيم مصطفى وآخرون، **المعجم الوسيط**، ج2، ص693 – 698 – 931 - 1066.

([4]) العسكري، أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سهيل(ت 395هـ)، **الفروق اللغوية**، (تحقيق محمد ابراهيم سليم)، دار العلم والثقافة ,القاهرة، ج1، ص 75 - 127- 258.

([5]) ابوالبقاء، **كتاب الكليات**، ج1، ص 975.

([6]) الزبيدي، **تاج العروس من جواهر القاموس**، ج13، ص345.

جاءت مرة واحدة في القرآن هي في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾[المدَّثر: 18]. فكانت ذكراً لقصة أحد الكفار، وهو الوليد بن المغيرة، وكيف أنه أعمل عقله وفكر بطريقة يطعن فيها بصدق ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، ألا وهو القران الكريم.

أما عن العلاقة بين هذه الدلالة والاعتبار فهو أن النتيجة من هذا التفكير كان المفروض منها الاعتبار بما جاء به القران وانه كتاب الله تعالى. وهذا فعلا ما حدث مع الوليد عندما طلب منه القول في القرآن قال: والله إن له لحلاوة، وان عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه، ففكر ونظر، ثم عبس وقال: هو سحر. فعبوسه يدل على اعتباره بعد تفكيره، لكنه قال ذلك عناداً واستكباراً، فقد ذكر ابن عاشور: إن هذا التفكير والقول الذي قاله: (ثم أدبر وأستكبر)، دلالة على معرفته للحق، ولكن ابتعد عنه واستكبر عن قوله، وحيث إن جملة (انه فكر وقدر) مبينة لجملة: (إنه كان لآياتنا عنيدا) وتكملة لها وبدل عنها، وان تفكيره هذا كان ليجد قولا يروجه على الناس حتى لا يعتقدون انه وحي يوحى[1].

ومما يؤكد أن التفكير ينتج عنه الاعتبار: أنه قيل بعد هذا التفكير (فقتل كيف قدر)؛ لأن التقدير هو أعلى مراتب التفكير، وكان ينبغي أن يقوده هذا التفكير إلى الهداية إلى الصواب فجانبه إلى الغي، فلذلك جاء الاستفهام الإنكاري (كيف قدر)، وزيادة في استنكار هذا الأمر أنه أتى مكرراً زجراً وإنكارا لهذا التفكير[2].

قال ابن عادل في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ﴾[الحاقة: 41]: (قيل إنهم قد يؤمنون في قلوبهم، إلا أنهم يرجعون عنه سريعاً ولكن يتراجعون ولا يتممون الاستدلال، ألا ترى الى قوله تعالى: (إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ),[المدثر:18])[3]. فكأن تفكيره في هذا الأمر نتج عنه اعتباره أن القران من عند الله، وأنه وحي، وإلا فلماذا يحاول صد الناس عنه باختلاق الأقاويل؟!

أما عن الصيغة الثانية للفكر؛ وهي إتيانه بصيغة المضارع؛ حيث فيها بيان إن كل تفكيرٍ من المفروض أن يهدي إلى الاعتبار وأن الإنسان لا بدَّ أن يعمل عقله، ويمعن في التفكير بشكل مستمر دائمٍ، لكي لا يغفل عمّا يمر به من توجيهات ربانية.

فبعد تتبعي للآيات التي وردت فيها دلالة التفكر، وجدتها جميعها تعقيب بعد ذكر آيات الله، وكأنها دعوة إلى تأمل هذه الآيات للاعتبار بها، والله اعلم.

([1]) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج29، ص307.
([2]) البقاعي، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، ج8، ص227.
([3]) ابن عادل، **اللباب في علوم الكتاب**,ج19، ص343.

حيث أشار ابن عاشور: أنه جيء بالتفكير بالصيغة الدالة على التكلف وبصيغة المضارع؛ للإشارة إلى تفكير شديد ومكرر[1]. وهذا ما يناسب هذا الفعل بحيث أتي به بهذه الصيغة، ومن المواطن التي جاء بها في هذه الصيغة

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيد﴾[سبأ: 46]. فلو تأملنا فيها نجد أن التفكر أتى بعد الوعظ حيث لا يمكن أن يستفاد من هذا الوعظ إلا من خلال التفكر فيه والتأمل وإعمال العقل بها حتى يتم الاعتبار، فنجد هنا دلالتين للاعتبار جاءت في موطن واحد، فحسن الإيجاز، وهذا من بلاغة القرآن وعلو نظمه، والله اعلم.

أما عن العلاقة بين التفكر في هذه الآية والاعتبار فهو ما بينه ابن عاشور حيث ذكر: أنهم لو تفكروا بحال النبي صلى الله عليه وسلم لوجدوه أصدق الناس وأعقلهم، وكيف كان في مكة قبل أن يدعوهم إلى ما دعاهم إليه؛ ليعتبروا بما جاءهم به، وليتأكدوا أنه الحق ولزادهم هذا التفكر يقيناً بأنه لم يكن به جنون وحثهم ذلك على الاعتبار، وللتأكيد على هذا التفكر لأخذ العبرة من حياته وصفاته: أنه قال سبحانه وتعالى: (ما بصاحبكم)؛ فسماه صاحبهم لمصاحبته لهم في مكة، ومخالطته إياهم ولمعرفتهم التامة به. وأن التعبير كذلك (بصاحبكم) فيه إقامة للحجة عليهم في كذبهم ودعواهم التي ادعوا بها على النبي صلى الله عليه وسلم، حيث إنهم خالطوه، وعاشروه، وجالسوه ولم يكن أحد يعرفه مثلهم، فقد كانوا يعرفون أنه أصدق الناس وأكثرهم أمانة، ومن أجودهم كرماً، وأكملهم عقلاً، وأوفرهم حلماً، فتذكيرهم بهذه الصفات لبيان كذبهم. ولذلك اقتصر على التفكر؛ لأن تفكرهم هذا وإذعانهم بنفي الجنة عنه صلوات الله وسلامه عليه وإقرارهم بأنه من العقلاء يجعلهم يعتبرون بما جاء به وأنه الحق[2]. فبعد هذا التفكر يرون الحق وانه صلى الله عليه وسلم جاءهم بما يسعدهم[3]. فهذه دلالة على أن التفكر يبعث على الاعتبار ويحث عليه.

كما جاءت صيغة المضارع للمخاطب لطلب التفكر مرتين في سورة البقرة وهي قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ

([1]) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج13، ص85.
([2]) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج22، ص234.
([3]) سيد طنطاوي، **التفسير الوسيط**، ج11، ص306.

يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾[البقرة: 219]. وفي قوله تعالى: ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾[البقرة: 226]. فجاءت في سورة واحدة وبنفس العبارة ولكن مع اختلاف السياق؛ حيث كان طلب التفكر الأول في حكم شرعي ألا وهو سؤالهم عن حكم الخمر، والثاني في أمر كوني يحتاج كذلك الى إعمال عقل وتفكر في قصة من اهلكهم الله.

فلو تفكرنا وتأملنا هاتين الآيتين مع هذين السياقين المختلفين، نجد أن التفكر في هذه الآيات يرشدنا ويدلنا على أن هذا الحكم الشرعي نزل للمحافظة على المجتمع المسلم من العواقب التي تترتب على شرب الخمر، فعند تفكرنا في هذا يدفعنا إلى الاعتبار بهذا الحكم، وأن الإنسان لو فكر واعمل عقله وفكره؛ لوجد أن الذي ينفق في الخير أفضل من الذي ينفق في الشر.

وكذلك تفكرنا في الآيات الكونية وقدرة الله على إرسال العواصف وإهلاك المحاصيل التي يتكسب الناس من ورائها، ويتاجرون بمخرجاتها عبرة لهم بأن كل ما يحصلون عليه من أموال هي نعم من عند الله وقادرٌ على إزالتها فيتفكرون بكل هذا ليعتبروا به وينفقوا ويتصدقوا ولا يبخلوا. فتفكرهم هذا دافع إلى اعتبارهم واتباعهم لأوامر الله. قال ابو العباس الفاسي: («تتفكرون»؛ أي: في هذه الآيات فتعتبرون وتخلصون أعمالكم لله وتخافون من سوء العاقبة)[1].

ومما يبين أيضاً علاقة التفكر في الاعتبار المقارنة التي بينت أهمية التفكر، وأن نتيجته الاعتبار، حيث قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾[الأنعام: 50]. فهذا السؤال فيه بيان وتشبيه للتفكر بالبصر الذي يدل الانسان الى الطريق، كما قال ابن عاشور: هو استفهام إنكاري، فيه تعريض على أن الذين لم يستفيدوا من آيات الله ليسوا من أهل الفكر، ولم تفصل الآيات من أجلهم[2].

وقبل أن أتكلم في علاقة هذه الدلالة بصيغة المضارع للغائب بالاعتبار، أود أن أتكلم عن أسلوب الحذف والذكر أيضاً في هذه الصيغة وكما أسلفت سابقاً، أن الحذف جاء أقل حيث كان في خطاب الحاضر في موطن واحد، وقد بينا سبب ذلك، أما في صيغة الغائب فكان في مواطنين فقط،

([1]) ابو العباس الفاسي، **البحر المديد**,ج1,ص346.
([2]) ابن عاشور، **التحرير والتوير**,ج7,ص243.

ففي الموطن الأول كان في قولة تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٍ﴾[الأعراف: 184]. فقد كان الحذف للنون مناسباً لسياق الآية حيث أتى طلب التفكر مقتصراً على أمر واحد وهو هل بالنبي صلى الله عليه وسلم جنة، فناسب السياق الحذف والإيجاز.

فقد ذكر ابن عاشور: إن الاقتصار على التفكر هو طلب نفي الجنة عن الرسول صلى الله عليه وسلم؛ لأن الأصل في الكفر هو الطعن في نبوته عليه أفضل الصلاة والسلام، وأنه مجنون؛ لأنها دعوتهم التي استمروا عليها، وهي الأكثر رواجاً عند أهل مكة حيث إن الجنون يطرأ مرة واحدة، فلم يجدوا علة أقرب للقبول من دعوى أنه قد اعتراه الجنون[1].

أما في السياق الذي فيه طلب للتفكر في أشياء كثيرة أتى فيه الذكر، ولذلك نجد الآيات التي جاءت بالذكر جميعها موجه إلى التفكر في آيات الله عامة، أو في آيات متعددة متنوعة، كما في سورة آل عمران، والله اعلم.

أما عن علاقة هذه الدلالة بالاعتبار؛ فأتى الفعل بصيغة الخطاب للغائب دلالةً على بعدهم عن الحق، وأن هذا الخطاب هو الذي يناسب حالهم. وذلك أنهم لم يظنوا به الجنون، ولكن كان يقولون ذلك بهتاناً وعناداً، وطلباً لسبب يجعلهم ينكرون ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم[2].

وعند الدعوة لهم بالتفكر بحاله ووصفه الصاحب فإن هذا أدعى لهم بالاعتبار بصدق ما جاء به واتباعه، كما مر معنا في بحث التفكر بصيغة المخاطب.

أما عن الموطن الثاني الذي ذكر في التفكر بصيغة الخطاب للغائب وبأسلوب الحذف فقد كان في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاء رَبِّهِمْ لَكَافِرُون﴾[الروم: 8]. فلو تأملنا في السياق أيضاً نجد الحذف والإيجاز هو الذي يناسب السياق؛ لأن الدعوة هنا للتفكر كانت إلى شيء واضح لهم أما يكون المقصود بالتفكر بأنفسهم يقصد به الظرفية الحقيقة بحيث يكون هذا التفكر تجاه السموات والأرض مستقراً في أنفسهم. وهذا أمر مشاهد أمامهم بحيث لا يحتاج إلى كثرة الأشياء المتفكر فيها فناسب الحذف، أو أن طلب هذا التفكر يكون على الظرفية المجازية؛ بحيث يتعلق المفعول بالفعل؛ بحيث يتأملوا ويتدبروا في

([1]) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**,ج22,ص234.
([2]) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج18، ص90.

أنفسهم، ويراد منهم التفكر في ذواتهم. وهذا أيضاً قريب منهم محسوس لديهم؛ فناسب السياق الحذف، والله اعلم.

أما عن العلاقة في هذا الموطن بين هذه الدلالة والاعتبار، فكان طلب التفكر في الأنفس أو في اجل السموات والأرض عطفاً على جملة قوله تعالى: ﴿وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾[الروم: 7]؛ لأنهم نفوا الحياة الآخرة، فسيق لهم هذا المثل، بحيث يكون طلب التفكر عام على كل غافل منكر، وهذا يشمل مشركي قريش، وهذا الاستفهام تعجبي من غفلتهم وعدم تفكرهم[1]؛ لأن تفكرهم وتأملهم سيبعثهم على الاعتبار بأن من استطاع أن يخلقهم على هذه الصورة المتقنة، وكيف تدرجوا في السن إلى أن أصبحوا رجالاً، قادرٌ على أن يعيدهم مرة أخرى، وكذلك لو تفكروا في قرارة أنفسهم وبتمعن بخلق السموات والأرض وعظم هذا الخلق، سيدفعهم إلى الاعتبار بأنه قادر على أن يعيدهم.

فمما سبق يتبين لنا أن دلالة الفكر إذا جاءت بالحذف؛ يراد منها الاعتبار، ولكنه اعتبارٌ موجه إلى أمر واحد مباشر في لفتةٍ سريعة، والله أعلم.

أما عن صيغة الخطاب للغائب في «يتفكرون»، بحيث تكون بالذكر دون الحذف؛ فهي أكثر المواطن التي جاء فيها الدعوة إلى التفكر؛ حيث إنها ذكرت إحدى عشر مرة جميعها قرنت بذكر آيات الله، ما عدا في موطنين ذكرت مقرونةً بآية واحدة:

الأول في سورة النحل وهو قوله تعالى:(هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (10) يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ),[النحل:11]. وكانت تتكلم عن آية واحدة هي إنزال الماء، ولكن هذه الآية تفرعت منها عدة آيات، وهي في الكلام على أن هذا الماء النازل من السماء ينبت الأشجار المختلفة، منها ما يثمر ومنها ما لا يثمر، وكذلك هذا الثمر ليس بنوع واحد بل أنواع مختلفة، وكل هذا يحتاج إلى إطالة في التفكير، مع تنوع في هذه الآيات. قال ابو حيان:(ألا ترى أن الحبة الواحدة إذا وضعت في الارض ومر عليها مقدار من الزمن معين، تخرج الأوراق والأزهار والأكمام، والثمار المشتملة على أجسام مختلفة الطبائع والطعوم والألوان والروائح والأشكال والمنافع)[2].

أما عن الموطن الآخر فكان أيضاً في نفس السورة حيث قال تعالى:(وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (68) ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ

([1]) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج21، ص50 - 52.
([2]) ابو حيان، **البحر المحيط**، ج6، ص512.

يَتَفَكَّرُونَ),[النحل:69]. فقد ذكر الله سبحانه آية واحد من آياته وهي النحل، ولكن هذا المخلوق الصغير نتج عنه آيات كثيرة تحتاج إلى طول تفكر وتأمل؛ فكيف لهذه النحلة الصغيرة أن تتخذ بيتاً في الجبل أو الشجر أو في البيوت لولا قدرة الله، وكيف هديت إلى أن لا تأكل إلا من الثمار والأزهار وكل ما هو طيب، وتبتعد عن كل أكل فاسد؛ كبقية الحشرات، وكيف تقطع المسافات للبحث عن هذا الأكل، وكيف تعود ومن الذي هداها لمعرفة طريقها أنه الله، ومن الآيات التي ينتج من آية النحل هذا المخلوق العجيب، هو أن ما يخرج منها شراب للناس مختلف لونه بحسب الثمر الذي أكل منه النحل، وأعظم من ذلك أن جعل هذا الشراب من هذا المخلوق الصغير شفاءٌ للإنسان الذي يفوقه حجماً وقوة بآلاف المرات؛ أليست هذه الآيات حريٌ بمن مرت به أن يتوقف عندها ويتفكر فيها. قال ابن عاشور:(اختير وصف التفكر هنا لأن الاعتبار بتفصيل ما اجملته الآية في نظام النحل محتاج إلى إعمال فِكر دقيق، ونظر عميق)[1].

أما عن المواطن التي استعيض عنها بذكر الآيات، فكانت بكلمة الذكر والقرآن، وهو محمل الآيات التي يجب أن يتفكر فيها الإنسان. فكانت هذه الآيات متنوعة متعددة من قصص وأمثال وأشياء محسوسة مشاهدة؛ لكي تحث على التفكر، فجاء بالذكر دون الحذف؛ لأن كل هذا يحتاج إلى إطالة في التفكر، والله اعلم.

ولو تأملنا الآيات التي ورد فيها طلب التفكر نجد أنها أشياء لها صورة في العقل أو مبينة من الرسل لكي تكون لها صورة في الذهن، وهذا ما يناسب معنى التفكر كما أسلفنا، وأنه للوصول إلى المعلوم لابد أن يكون هناك سابق علم، وهي الصورة الذهنية. وهذا من بديع نظم القرآن؛ فإنه يأتي بالتعقيب بما يناسب التقديم.

وبعد كلامنا عن أسلوب الحذف والذكر في هذه الدلالة، يتبين للقارئ الكريم العلاقة بينها وبين الاعتبار؛ فبمجرد إعمال العقل بما مر من آيات، يدفع ذلك إلى الإيمان والاعتقاد الجازم بأن هذه الآيات من العزيز الحكيم الذي قدر لكل شيء خلقه ثم هدى. فالتفكر وإعمال العقل في ما أنزل الله من آيات، دافع الى الاعتبار بهذه الآيات، والإيمان بوحدانية الله، وهي الغاية من إرسال الرسل وإنزال الكتب. ولو تأملنا في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[آل عمران: 190 - 191]. نجد أن الله سبحانه وتعالى قد وصف أصحاب

([1]) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج14، ص210.

العقول النيرة المتأملة المتدبرة العاملة بمقتضى هذه الآيات بالمتفكرين، وعقب بعد وصفهم بهذه الصفة بأنهم أقروا بأن خالق هذا الخلق هو الله، وأنه لم يخلقه عبثاً، لأنه لا يمكن لصاحب عقلٍ أن يتفكر بآيات الله ولا يؤمن بها ويعتبر، ولذلك كان دعاء هؤلاء المتفكرين، كما أخبرنا سبحانه قولهم (فقنا عذاب النار)؛ قال ابو العباس الفاسي:(هي التي استحقها من أعرض عن النظر والاعتبار)[1]؛ لأن صاحب العقل السليم الذي يتفكر في هذا الخلق العظيم، ولا يدفعه هذا التفكير إلى الإيمان بأنه من صنعة الله، لم يؤمن بذلك إلا استكباراً وعناداً يستحق عليه اشد العذاب، فكان هذا الدعاء من منطلق الاعتبار، وأن الدافع عليه هو التفكر.

ومما يدلل على أن التفكر يبعث على الاعتبار أنه أتي بـه في غرض جديد بعد الانتهاء من المقدمات والمقاصد، وهو غرض الاعتبار بعوالم الخلق وأعراضها، وبالتنويه بالذين يعتبرون بها، فكان غرضاً عاماً لبيان الاعتبار وحال المؤمنين من الاتعاظ بآيات الله، وهذا شأن القرآن فإنه يختم بالمواعظ؛ لأنها أهم أغراض الرسالة[2]. فالمتفكرون هم المعتبرون بصنعة صانع ذلك، وأنه لا يقدر على ذلك إلا الله سبحانه، وهو خالق كل شيء ومليكه، الذي يدبره، وأنه على كل شيء قدير[3].

ولو نظرنا في بقية الآيات التي جاء فيها طلب التفكر نجد أنها تقدم صورة ذهنية في العقل، وهذا كله من بديع القرآن، وهذا ـ عند إعمال العقل ـ فإنه دافعٌ فيه إلى الاعتبار، وهذا ما صاحب جميع المواطن التي ذكر فيها، فعلاقة الفكر في الاعتبار علاقة عقلية بحتة تقوم على مقدمات ذهنية، وجهنا الله سبحانه إليها، سواء بقصة، أو مثال، أو شيء مشاهد منظور كخلق الكواكب والأجرام أو محسوس من الأشياء التي بين أيدينا، تكون نهايته أخذ العبرة منه والاعتبار به.

([1]) ابو العباس الفاسي، **البحر المديد**، ج1، ص559.
([2]) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج4، ص196.
([3]) الطبري، **تفسير الطبري**، ج7، ص475.

المطلب الرابع: العاقبة وعلاقتها الدلالية بالاعتبار

أولاً: تعريف العاقبة

لقد جاءت العاقبة في اللغة على عدة معان هي على النحو التالي:

1- تأخر الشيء: فالعاقبة من «عقب»، فالعين والقاف والباء أصلان: يدل احدهما على تأخر الشيء، والآخر على الارتفاع والشدة والصعوبة، ومنه: عاقبة الرجل معاقبة وعقوبةً وعقاباً. وقيل: احذر العقوبة والعقب. وقيل في الشعر:

فنعمَ والِي الحُكمِ والجارُ عمر لينٌ لأهل الحقِّ ذوَ عَقبٍ ذكَر[1]

وعقب الشيء وعقبهُ وعاقبتهُ وعاقبهُ وعقبته وعقباه وعقبانه آخره[2].

وفي تأخر الشيء أو إتيانه بعده؛ كقولك: أكل القوم عقبتهم وهو ما يعتقبونه بعد الطعام من حلوى، وفي الشدة يقال: لقيت منه عقبة الضبع؛ أي: لقيت منه الشدة[3].

2- الجزاء على الأمر: حيث جاءت العقبى والعاقبة والعقب بمعنى الجزاء على الأمر، ومنه قوله تعالى:(هو خيرٌ ثواباً وخيرٌ عقبا) أي: عاقبة ما عمل أن يرجع عليه، ويقال: «العقبى لك بالخير»؛ أي: العاقبة، والجمع منه أعقابٌ[4].

3- العقاب للمسيء: نجد كذلك أن العاقبة جاءت بمعنى العقوبة والعقاب للمسيء، ويكون هذا بعد قيامه بأمر يستحق هذه العقوبة، ولذلك جاءت بعده هذه العقوبة أو عقب فعله هذا الأمر. وقيل: سميت عقوبة؛ لأنها تعقب الذنب. ولذلك يقال: استعقب فلان من فعله خيراً أو شراً، وهي العاقبة[5]. ويقال للرجل: استعقب من أمره الندامة وتعقبها[6]. وقد فرق بين العقاب والعذاب أن العقاب يكون عن استحقاق، ولكون الفاعل يستحقه عقيب فعله، أما العذاب فإنه يجوز أن يكون مستحقاً أوغير مستحق، ويحتمل العقاب أن يكون خيرا أو شرا بحسب الفعل، ولذلك جاء مع ذكر المتقين والمجرمين، والعذاب مع الظالم، وإن قيل: هو معاقب؛ فهو على المجاز[7]. ومنه المعاقب وهو الذي يأخذ بالثأر ويدركه، ومنه قول الشاعر:

([1]) ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**,ج4، ص77 - 78.

([2]) ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي ابوالفضل(ت 711هـ)، **لسان العرب**، ط الثالثة، 15م، دار صادر، بيروت، 1414هـ، ج1، ص623.

([3]) **اساس البلاغة**، ج2، ص667.

([4]) ابن منظور، **لسان العرب**، ج1، ص611.

([5]) ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**,ج4,ص79.

([6]) الزمخشري، **اساس البلاغة**,ج2,ص667.

([7]) العسكري، **الفروق اللغوية**,ج1,ص249.

ونحـــــنُ قتلنـــــا بالمُخـــــارق فارســـــاً   جـــزاءَ العُطـــاسِ لا يمـــوتُ المعاقِـــبُ[1]

أي: أدركنا بثأره قدر ما بين العطاس والتشميت.

4- وجاء عقب؛ بمعنى: الرجوع، ومنه: أعقب الرجل؛ إذا رجع بعد مضي. وعقب عليه: كرَّ ورجع، ومنه في قوله تعالى (ولى مدبرا ولم يعقب) وقولك: أعقب الشيء؛ أي: رجع، وأعقب الرجل أي: رجع إلى الخير، والعقبى الرجوع إلى الله، والعقب الرجوع.

5- الإنابة: وجاء أيضاً في معنى الإنابة أو التناوب؛ حيث يقال: نجم معقب؛ أي: يعقب نجماً آخر بعد ذهابه، ومنه العقيب: الذي يعاقب آخر في المركب، ومنه قولك: قد أعقبته؛ أي: نزلت ليركب، وهما عقيبان؛ أي: كل واحد يعقب صاحبه، ومنه: يعقبان إذ جاء الليل وذهب النهار، فيقال عقب الليل النهار وعقب النهار الليل، ومنه ذهاب بعض أهل التفسير عندما فسر قوله تعالى: (له معقبات بين يديه ومن خلفه) بأنها ملائكة الليل والنهار؛ لأنهم يتعاقبون، ومنه قولهم: عاقب بين رجليه إذا راوح بينهما، اعتمد مرة على اليمنى ومرة على اليسرى. والاعتقاب: التداول، والعقيب: كل شيء أعقب شيئاً، وهما يتعاقبان، وعقيبان كل واحد يعقب صاحبه، واعتقبه فلان؛ أي: خلفه، وهما يعقبانه ويعتقبان عليه ويتعاقبان: يتعاونان عليه[2]. أو كقولك: أنا أعقبك في عملك؛ أي: أنوب عنك، وأقوم به مكانك. فتقول: فلان عقيبي؛ أي: معاقبي في العمل، ومنه قولك: لم أجد من قولك معقباً؛ أي: أنه صحيح سديد ولا يحتاج إلى تعقيب؛ أي: تتبع، ومنه المعقب الذي يتتبع عقب الخصم طالباً حقه[3].

6- الأتباع أو الأثر: يقال عليه عقبة السرور والجمال؛ أي أثرهما، ومنه فلان موطأ العقب؛ أي كثير الأتباع[4]. ومنه قولك: هل أعقب فلان؛ أي: ترك عقباً؛ أي: ولداً، والعاقبة ولد الرجل وولد ولده الباقون من بعده، ومنه قول العرب: لا عقب له؛ أي لم يبق له ولد ذكر، وكل من خلف شيء فقد عقبه. ومنه سُمِّي الرسول صلى الله عليه وسلم العاقب؛ لأنه عقب من قبله من الأنبياء عليه السلام[5]. وكقولك: صلينا عقب الظهر، وصلينا أعقاب الفريضة؛ أي: بعدها، وكل شيء جاء بعد شيء يقال له عقبهُ؛ كماء الركية، وعدو الفرس، وإذا كان الجري بعد الجري، يقال: فرس ذو عقب؛ أي: له جريٌ بعدى جري[6]،

(1) هذا البيت أنشده ابن الأعرابي، محمد بن زياد(ت 231هـ)، لبعض بني عمرو بن تميم.
(2) ابن منظور، **لسان العرب**,ج1,ص614
(3) الزمخشري، **اساس البلاغة**,ج2,ص667.
(4) ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**,ج4,ص83.
(5) ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**,ج4,ص79.
(6) ابن منظور، **لسان العرب**,ج1,ص613.

قال امرُؤُ القَيس:

عِلـــى العَقَـــبِ جَيَّـــاشٌ كـــأَنَّ اهتِزامَـــهُ   إذا جـــاشَ فيـــه حَميُـــهُ غَلـــيُ مِرجَـــل[1]

وقيل: العقب: العصب الذي تعمل منه الأوتار، الواحدة عقبة، وقد يكون في جنبي البعير، ولكنه أصلب من العصب[2].والعقب منه العقاب؛ وهو من الطيور، سمي بذلك لشدته وقوته وجمعه: أعقب وعقبان، ويقال: عقاب عقبناه؛ أي: سريع الخطفة، ومنه قول الشاعر:

عُقَـــاب عَقَبنـــاةٌ كَـــأَنَّ وظيفَهـــا   وخُرطومَهـــا الأعلـــى بنـــارٍ ملـــوَّحُ

وقد أطال علماء اللغة في تعريف العاقبة، وذكروا جميع التصاريف التي يمكن أن تتبع هذه الدلالة وما يتعلق في معناها. ولكن ما يراه الباحث أن جميع هذه المعاني تعود إلى الأصلين اللذين ذكرهما ابن فارس، وهما: نهاية الشيء وآخره، والثاني: قوة الشيء وشدته. فالعاقبة هي الجزاء الذي يكون في نهاية الأمر؛ إن كان خيراً فخير، وإن كان شراً فشرّ.

ثانياً: علاقة دلالة العاقبة بالاعتبار

إنني عندما استقرأت دلالة العاقبة في القرآن وجدت أنها قد جاءت في ثلاث صيغ. فكانت الصيغة الأولى، بلفظ <<العاقبة>>، وقد جاءت في موطن واحد معرفة، وبقية المواطن منكرة، والصيغة الثانية هي كلمة عقبى، والصيغة الثالثة هي العقاب، وكذلك جاءت في مواطن معرفة، وفي مواطن أخرى منكرة. ولو قيل: ما علاقة العقاب بالعاقبة؟ نقول: العلاقة هي الاشتراك في جذر الكلمة، كما أنها تشترك معها في الدلالة على المعنى العام. وارتباط العقاب بالعاقبة هو أن جميع مواطن العاقبة كان فيها عقاب من الله، ما عدا في موطن واحد، وهو الموطن الذي جاء معرفاً وكان مرتبطاً بالمتقين.

ووجدت أن دلالة العاقبة فيها دعوة إلى الاعتبار، ولكن بطريقة مختلفة عما سبق من الدلالات؛ حيث كانت الدلالات السابقة موجهة مباشرةً إلى أمر معين من خلاله يحصل الاعتبار؛ مثل: تذكر، أو موعظة، أو تفكر، أما هذه الدلالة فاستطيع القول بأنها جمعت كل هذه الدلالات. بحيث كانت عامة لم يقيد النظر إلى هذه العاقبة عندما يتم التوجيه إليها من الله سبحانه بتذكر حال، أو ذكره، أو تفكرٍ فيه وتدبر. ولكن يطلب النظر إليها ويقوم الإنسان بتأمل هذه العاقبة أو بمداومة تذكرها بحيث تكون له رادع بتذكر هذه العواقب، أو بالتفكر في السبب الذي جعل هذه العاقبة

([1]) هذا بيت من معلقة امرؤ القيس

([2]) ابن منظور، **لسان العرب**، ج1، ص623.

تحصل لهم، سواء من المتقين أو الكافرين.

فعلاقة دلالة العاقبة بالاعتبار؛ مرتبطة أيضاً بمن وفقه الله إلى النظر فيها بعين العقل، ومما يؤكد على هذه العلاقة هي الصيغ التي جاءت فيها حيث أتت مرة معرفةً، ومرة نكرةً، فلو تأملنا دلالة العاقبة المعرفة نجد أنها جاءت في جميع مواطنها في القرآن مرتبطة بالمتقين، كما قال تعالى:(قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ),[الأعراف:128]. فهذه الآية فيها بيان أن العاقبة المعروفة المحمودة التي بينها النبي صلى الله عليه وسلم للمؤمنين هي من نصيب المتقين. قال الطبري:(والعاقبة المحمودة لمن اتقى الله وراقبه، فخافه باجتناب معاصيه وأدَّى فرائضه)[1]. ولذلك جاءت في موطن آخر بالتوكيد بـ(إنَّ)، ومفادها توكيد أن العاقبة الحسنة للصبر في سبيل الله لا تكون إلا للمتقين. وجاء هذا التوكيد في موطن واحد في القران عندما وجه الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، فكأن التفرد بهذا الموطن الوحيد تأكيداً أيضاً على أنه ليس لهم إلا العاقبة الحسنه، حيث قال تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[هود: 49] فقد كان هذا الموطن الوحيد الذي جاءت فيه هذه الدلالة بهذه الصيغة، وكان هذا التعريف يناسب مقام التوكيد؛ حيث إن النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي يعلم حق اليقين هذه العاقبة، لكي يبشر بها المؤمنين وتكون دافعاً وحافزاً لهم للثبات على هذا الطريق والله أعلم. حيث اشار الطبري أن هذه العاقبة فيها اعتبار بأن الغلبة والتمكين للمؤمنين كما كانت عاقبة نوح والذين آمنوا معه، فكان لهم الظفر والنجاة من العذاب في الدنيا والنعيم المقيم في الآخرة[2]. كما بين صاحب الظلال أن هذه العاقبة فيها تأكيد على سنة جارية لا تتخلف ولا تتبدل، وهي أن النصر والاستخلاف لا يكون إلا للمؤمنين[3]. فيكون هذا التأكيد

([1]) الطبري، **تفسير الطبري**، ج13، ص43.
([2]) الطبري، **تفسير الطبري**، ج15، ص356.
([3]) قطب، **في ظلال القرآن**,ج4,ص1881.

زيادةً لهم في الاعتبار بأن العاقبة للمتقين. وكأن الخطاب يقول: اجتهد يا محمد في التبليغ، واصبر على الشدائد؛ فإن العاقبة لك وللمتقين بالنصر، وكأنها دعوة إلى الاعتبار بعاقبة نوح والذين معه[1].

ومما يؤكد هذه العلاقة، ما بينه ابن عاشور أن سياق الآية استئناف أريد منه الامتنان على النبي صلى الله عليه وسلم والموعظة له، وقياساً لحاله على حال نوح مع قومه وكيف أنه صبر ونال النصر عاقبةً لصبره، وليعتبر المؤمنون أن هذه العاقبة الحسنة ثابتةٌ لهم منتفيةٌ عن غيرهم[2].

أما في المواطن الأخرى التي جاءت دلالة العاقبة معرفة، كما في قوله تعالى: {وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لاَ نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى}[طه: 132]. فقد كان هذا التعريف بـ«أل» التي للجنس؛ فجاءت لتفيد تملك المتقين لها، حيث إن اللام في «للمتقين» للملك؛ أي: أن العاقبة ملك للمتقين دون بقية الناس. ولعل التعريف لها من قبيل الغلبة؛ فلذلك أطلقت معرفة على انتهاء الحال بما يسر ويلائم[3].ففي هذا الموطن ـ الذي يبين أن العاقبة لا تكون إلا للمتقين ـ دعوةٌ إلى الاعتبار بأن الذي يريد أن يمتلك العاقبة الحسنة كما بينت هذه الآية؛ فعليه أن يقيم فرائض الله، وأن يصبر على كل ما يمر به عند امتثاله لأوامر الله سبحانه وتعالى.

أما فيما يتعلق بدلالة العاقبة بصيغة النكرة؛ فقد جاءت جميع المواطن التي ذكرت فيها مرتبطةً بمن يخالف أمر الله ويعرض عنه. وسبب إتيانها بصيغة النكرة والله اعلم: أن عواقبهم مختلفة، وكان هذا الاختلاف من حيث طريقة إهلاك الله لهم بسبب عدم طاعتهم لربهم عز وجل؛ فمنهم من أغرق، ومنهم من أخذته الصيحة، ومنهم خسف به، ومنهم من أهلك بالريح؛ فكانت هذه العواقب متنوعة، فلذلك جاءت العاقبة نكرةً لتناسب السياق القرآني الذي ذكرت فيه هذه الطرق، كل على حدة. وكانت تدعو إلى النظر في حالهم والمصير الذي ألمَّ بهم، والاعتبار بهذا المصير، وتجنب الفعل الذي ساروا عليه.

وبما أن المواطن كثيرة؛ فسنأخذ بعض الآيات التي وردت فيها هذه الدلالة بهذه الصيغة، ومنها: قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[آل عمران: 137]. قبل بيان علاقة الاعتبار بالعاقبة في هذا المقام؛ فإن هناك موضوعاً أود توضيحه

([1]) ابن عطية، **المحرر الوجيز**، ج3,ص194.
([2]) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**,ج12.ص93.
([3]) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**,ج9,ص60.

في هذه الآية؛ وهو أن طلب النظر في هذه الآية أتى بالفاء حيث قال تعالى:(فانظروا)، وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[الأنعام: 11]. كان الطلب بـ(ثم) حيث قال تعالى:(ثم انظروا)، فالاختلاف هنا قال عنه الزمخشري:(جعل النظر مسبباً عن السير في قوله فَانْظُرُوا فكأنه قيل: سيروا لأجل النظر، ولا تسيروا سير الغافلين. وأما قوله سِيرُوا فِي الأرض ثُمَّ انْظُرُوا فمعناه إباحة السير في الأرض للتجارة وغيرها من المنافع وإيجاب النظر في آثار الهالكين. ونبه على ذلك بثم، لتباعد ما بين الواجب والمباح)[1].

أما في ما يتعلق بموضوع الاعتبار بدلالة العاقبة، ففي هذه الآية دعوة من الله إلى النظر والتأمل والتفكر إلى عواقب كل من سبق من هؤلاء المكذبين لكي نعتبر بعاقبتهم وما حل بهم، حيث أن النظر كما مر معنا في التفكر أنه إعمال العقل والتدبر فيما يمر بالإنسان، قال الامام البقاعي:(أي أمعنوا النظر وبالغوا في التفكر وأطيلوا التدبر إذا رأيتم آثار المعذبين لأجل تكذيب الرسل، فإنكم إذا شاهدتم تلك الآثار كمل لكم الاعتبار وقوي الاستبصار، وذلك إشارة إلى أن الأمر في غاية الانكشاف، فكلما طال الفكر فيه ازداد ظهوراً)[2]. أو ربما يكون النظر بصرياً لشيء مشاهد. ذكر ابو العباس أن النظر في هذه العواقب فيه بيان للمعتبرين لكي يعتبروا وينزجروا عن تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم، وزيادة هدى وموعظة للمتقين[3]. واشار ابن عاشور المقصود هو النظر إلى عاقبتهم من خلال آثارهم؛ ليحصل الاعتبار بما وصل من أخبارهم، أو أنه السؤال عن أسباب هلاكهم وكيف كانوا أولي قوة، فطغوا، فاستأصلهم الله وجعل آثارهم مشاهدة للعيان لكي يكون في عاقبتهم عبرة للمعتبرين[4]. وقال أبو حيان الأندلسي: (وفي هذه الآية دلالة على جواز السفر في فجاج الأرض للاعتبار، ونظر ما حوت من عجائب مخلوقات الله تعالى)[5]. وذكر الطبري أن الخطاب موجه من الله للظانين، أي سيروا أيها الظانين وانظروا إلى عاقبة الذين يكذبون رسلي كيف كانت عاقبتهم وما حل بهم، وقد تركت آثارهم عبراً لمن يراهم؛ ليعتبر بعاقبتهم[6]. وما ذهب اليه أكثر المفسرين هو أنه النظر الى آثارهم في الأرض للاعتبار بما حصل لهم.

ومن الألفاظ التي دلت على العاقبة كلمة (عقبا) و(عقبى)، فمرة بالمد للألف ومرة بالقصر، وليس هناك فرق بينها فالعقبا والعقبى من معاني العاقبة، قال الزمخشري:(وقرئ عُقْباً بضم القاف

([1]) الزمخشري، **تفسير الكشاف**، ج2، ص8.
([2]) البقاعي، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، ج2، ص593.
([3]) ابو العباس الفاسي، **البحر المديد**، ج1، ص509.
([4]) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج4، ص97.
([5]) ابو حيان، **البحر المحيط**، ج3، ص352.
([6]) الطبري، **تفسير الطبري**، ج7، ص228.

وسكونها، وعقبى على فعلى، وكلها بمعنى العاقبة)[1]. ويراد بها: نهاية الأمر وآخره. فالتي بألف ممدودة وردت في موطن واحد في القران، وهو قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾[الكهف: 44]. والتي بالألف المقصورة وردت في أربعة مواطن في سورة واحدة هي سورة الرعد، حيث قال تعالى:(وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ)[الرعد:22].

وقوله تعالى:(سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ)[الرعد:24].

وقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وِظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾[الرعد: 35].

وقوله تعالى:(وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ)[الرعد:42].

فنجد أن كل هذه الآيات فيها بيان لكل عاقبة من الفريقين وقصرة عليه؛ فالمؤمنون قصرت عليهم الجنة، بحيث أشير إليها بأنها هي عاقبة المؤمن، وكذلك في حال الكافرين قصرت عليهم عاقبة النار، وجميعها تدل على العاقبة لبيان المصير ليعتبر الناس بعاقبة كلا الفريقين. فالعلاقة بينها وبين الاعتبار نجدها واضحةً، فمع اختلاف القراءة في عقبا في سورة الكهف، حيث قرأ عاصم وحمزة بإسكان القاف والباقون بالضم[2]. فلم يتغير المعنى وهو عاقبة الأمر ومآله، وهي تمييز لصيغة التفضيل التي هي (خير)[3]. بحيث إذا عرف الإنسان أن ما عند الله هو أخير، فيكون التفضيل في الخيرية على ثواب غيره وعُقبَ غيره[4]. وهو الذي تكون عنده عاقبة الخير والرزق، وهو المتفضل على الناس بهذا الخير، يدفعه ذلك إلى الاعتبار بهذه العاقبة ثم إلى الشكر لله على ما هو فيه من نعمه، وأن طلب زيادة هذا الخير لا يكون إلا من الله وحدة. وإذا عرف كذلك أن عاقبة المؤمن تكون نهايتها في نعيم مقيم وجنات وعيون، فإن هذا يكون محفزاً له للاعتبار بهذه العاقبة وطلبها والبحث

([1]) الزمخشري، **الكشاف**، ج2، ص725.

([2]) الداني، أبو عمر عثمان بن سعيد بن عثمان(ت 444هـ)، **التيسير في القراءات السبع**، الطبعة الثانية، 1م، (تحقيق: اوتو تريزل)، دار الكتاب العربي، بيروت، 1984م،، ص143.

([3]) الشنقيطي، **أضواء البيان**، ج3، ص280.

([4]) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج15، ص329.

عنها، وأن طريق نيلها لا يكون إلا من خلال عبادة الله وحده، وكذلك إذا عرف أن نهاية وعاقبة الكافر النار والعذاب الأليم، سيعتبر بهذه العاقبة ويبحث عن السبل التي تبعده عن هذه العاقبة.

ومن الألفاظ كذلك كلمة (العقاب) وقد وردة في القرآن ستة عشر مرة مُعرفةً، منها قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[الأنفال: 25]. وأتت في أربعة مواطن نكرة منها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِىءَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾[الرعد: 32]. ولو تأملنا في سبب إتيان بعضها بالتعريف والبعض الآخر بالتنكير؛ نجد أن الآيات التي جاءت فيها كلمة العقاب معرفة: إما جاءت مؤكدةً للعقاب، كما ورد في الآية السابقة في سورة الأنفال، فلا يمكن أن يؤكد على أمر وهو نكرة، فلا بد من معرفة هذا المؤكد؛ فلذلك عرفه، وإما جاءت صفة لله معرفة، أو إخباراً عنه بأنه شديد العقاب إذا عاقب، وتذكيراً للمسلمين، كما في قوله تعالى:(وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)[البقرة:211]. فإخبارهم يكون بهذه القرينة، قال ابن عطية:(خبر يقتضي ويتضمن الوعيد، والْعِقابِ)[1]. ومن الآيات التي جاء فيها العقاب معرف أيضاً ما جاء على لسان الشيطان عندما تبرأ من الذين اتبعوه حيث قال تعالى:(وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ)[الأنفال:48]. فإنه يعلم العقاب الذي سينال المعرضين المكذبين، لإطلاع الله له بالعقاب الذي سيناله، ورأى النار، فكان أمراً مشاهداً أمامه، فذكر العقاب على لسانه معرفاً، وإما أن يكون سبب العقاب لأشياء معروفة نهي عن فعلها، فعرف العقاب لمناسبته مع السياق. أما عن ذكر العقاب بالنكرة فهو إتيانه في بعض المواطن بصيغة السؤال الاستفهامي كما في قوله تعالى:(وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ)[الرعد:32]. وقوله تعالى:(كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ)[غافر:5]. فكان هذا السؤال استفهام تعجبي تقريراً لهم وهو الذي يناسب التنكير فذكرت (عقاب) دون تعريف، قال الألوسي:(والمراد التعجيب مما حل بهم وفيه من الدلالة على شدته وفظاعته ما لا يخفى)[2]. وكذلك في سياق التكذيب أيضاً كان السياق عاماً غير محدد فناسبه التنكير، كما في قوله تعالى:(إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ)[ص:14]. وكذلك أن

([1]) ابن عطية، **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، ج1، ص284.
([2]) الألوسي، **روح المعاني**، ج7، ص151.

هناك تنوع في هذا العقاب فناسب معه التنكير قال أبو السعود:(أي ثبت ووقع على كل منُهم عقابي الذي كانت توجبه جناياتُهم من أصنافِ العقوباتِ المفصَّلةِ في مواقعِها)[1]. أما في الموطن الذي في سورة فصلت عند قوله تعالى:(مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ)[فصلت:43]. فكان السياق بالنكرة فناسب ذكرها كذلك، وهذا من بديع نظم القرآن.

أما عن علاقة العقاب بالاعتبار؛ فهو أن الاعتبار يحدث بسبب معرفة أن هناك عقاباً سيحل بمن يعصي الله، وسواء عرف هذا العقاب أو لم يعرفه، فإنه إذا كان له قلب وألقى السمع سيعتبر خوفاً من هذا العقاب. ومما يؤكد على ارتباط هذه الدلالة بالاعتبار: التوجيه الذي يرافقها من الله؛ حيث يقول (اعلموا) أي: تيقنوا واعرفوا وتأكدوا أن الله سيعاقب كل من يعرض عن أمره، فاعتبروا بعلمكم هذا، ولا تفعلوا ما يعرضكم لهذا العقاب.

ومن الأشياء التي تبين علاقة الاعتبار بالعقاب: ورود العقاب بعد فضلين لله على الناس؛ وهما مغفرة الذنوب وقبول توبة التائبين، والتعقيب بعدهما بـ(شديد العقاب) دلالة على أن الذين لم يعتبروا بالترغيب ويتوبوا ويستغفروا عن ذنوبهم التي اقترفوها، أتى لهم بالترهيب؛ وهو العقاب الشديد عند الله سبحانه، فكأنها دعوة إلى الاعتبار بهذا العقاب والتوبة والإنابة إلى الله سبحانه. وقد ذكر ابو العباس أن هذا إنذار لمن ترك أوامره وارتكب نواهيه، ومن أعرض عنه وركن إلى غيره[2]، ولم يعتبر بما جاءه من هذا الوعيد. كما بين ذلك أبو حيان أن من علم شدة العقاب على المخالفة كان ذلك أدعى له بأن يعتبر بهذا العلم ويتقي ليأمن العقاب[3].

ومما سبق يتبين لنا العلاقة بين دلالة العاقبة والاعتبار؛ أنها تدعو إلى الاعتبار بهذه النهاية التي حصلت أو ستحصل سواء بالخير أو بالشر، وأن الاعتبار بالعاقبة يكون إما بتذكر هذه العاقبة وجعلها حاضرة في الذهن والاعتبار بها، أو بالتفكر فيها وإعمال العقل، وكيف تحولت النعم إلى نقم وما هو الذي يبعد عن هذه العواقب، ويكون ذلك من خلال الاستماع إلى المواعظ التي تمر بالإنسان سواء المواعظ القرآنية أو الأحاديث النبوية التي تبين العواقب. جعلنا الله وإياكم ممن يختم لهم بخير وتكون عاقبتهم إلى خير.

([1]) أبو السعود، **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم**، ج7، ص217.
([2]) ابو العباس الفاسي، **البحر المديد**، ج1، ص248.
([3]) ابو حيان، **البحر المحيط**، ج2، ص271.

المطلب الخامس: تعريف التدبر وعلاقته الدلالية بالاعتبار

أولاً: تعريف التدبر

التدبر من «دبر»، وقد جاء في اللغة بعدة معان هي على النحو التالي:

1- آخر الشيء وخلفه: وهو خلاف قبله وقد ذكر ابن فارس أن الدال والباء والراء أصل هذا الباب في التعريف، حيث تندرج تحته معان عدة ذكرها أهل اللغة، وهي في جلها تطلق على آخر الشيء وخلفه، وهي خلاف قبله، ومنه دبر يدبرُ دبوراً، ومنه الدبير: وهو ما أدبرت به المرأة من غزلها حين تفتله، ودبَّرت الحديث عن فلان إذا حدثت عنه؛ لأن الآخر المحدث يجئ خلف الأول(1). ومنه الدابر: وهو آخر الشيء كذلك، وفي التنزيل قوله تعالى: {فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَالْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}[الأنعام: 45]. أي: استؤصل آخرهم ولم يبق منهم أحد(2). فقولك: ما بقي في الكنانة إلا الدابر؛ أي: آخر سهم، وقطع الله دابره؛ أي: آخره وما بقي منه، وكل ما يطلق على الآخر يقال له: دابر؛ فالجوارح عندما تصطاد يقال: ضربه الجارح بدبره، وهو الإصبع في مؤخرة الرجل(3). والدبر نقيض القبل، ويقال لدبر كل شيء: عقبه ومؤخره، وجمعه أدبار، وجعل فلان قولك دبر أذنه؛ أي: خلف أذنه، وجئتك دبر الشهر، وفي دبره وعلى دبره؛ أي: في نهايته أو آخره، ودبر البيت آخره، وإدبار النجوم تواليها وأدبارها أخذها إلى الغرب للغروب آخر الليل، ومنه دبره يدبره دبوراً: تبعه من ورائه، ودابر الشيء آخره(4).

2- النظر في عاقبة الأمر: ويقال دبَّر الأمر أي ساسه ونظر في عاقبته، وإذا علق عتق العبد بموت سيده، يقال له: دبره بعد موته(5).

3- جماعة النحل، ومفردها: دبور، قال لبيد:

بأشْهَبَ مِن أبكارِ مُزنِ سَحابَةٍ … وَأري دَبُورٍ شارة النّحلَ عاسِلُ

تَكُرُّ عَلَيهِ لا يُصَرِّدُ شُربَهُ … إذا ما انتشَى لم تحتضِرهُ العَوَاذِلُ(6)

ومنه ما رواه أنس بن مالك قال: افتخر الحيان من الأنصار، فقالت الأوس: منا حمي الدبر

---

(1) ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، ج2، ص324.

(2) ابن منظور، **لسان العرب**، ج4، ص86.

(3) الزمخشري، **أساس البلاغة**، ج1، ص277.

(4) ابن منظور، **لسان العرب**، ج4، ص268.

(5) ابراهيم مصطفى وآخرون، **المعجم الوسيط**، ج1، ص269.

(6) ربيعة، لبيد(ت 41هـ)، **ديوان لبيد بن ربيعة العامري**، دار المعرفة، ط الأولى، 1م,(حققه واعتنى به حمدو طماس)، 2004م، ج1، ص86.

عاصم بن ثابت الأنصاري[1]. وذلك أن المشركين عندما قُتل، أرادوا أن يمثلوا به، فحمته الدبابير حتى جاءه المسلمون وأخذوه ودفنوه.

4- المال الكثير: يقال رجل ذو دبر؛ أي: كثير الضيع والمال.

5- تدبير الأمر: وهو أن يدبر الرجل أمره، وينظر إلى ما تصير إليه عاقبته وآخره[2]. وقيل: هو التفكر في الأمر والتفهم، ولكن التفكر يكون في الشيء وأثناء حدوثه، والتدبر يكون بعد حدوث الشيء ونهايته. ومنه الاستدبار للأمور، مثل قولك: إن فلاناً لو استقبل من أمره ما استدبر لهدي لوجهة أمره، ونقل عن أكثم بن صيفي قوله لبنيه: "يا بني لا تتدبروا أعجاز أمور قد ولت صدورها"[3].

فمما سبق يرى الباحث أن دلالة التدبر في جميع تصريفاتها تعود الى معنى واحد وهو نهاية الشيء وآخره، والنظر في عواقبه أي أن الانسان أذا أراد أن يتدبر في أمر فعليه أن ينظر في آخره وبعد نهايته.

ثانياً: علاقة دلالة التدبر بالاعتبار

قبل أن نبين العلاقة نود أن نتعرض لموضوع سبق أن ذكرناه في بداية هذا الفصل، فناسب ذكره في هذا الموطن لتقارب الدلالتين، مما قد يسبب لبساً إذا لم يبين في موطنه، وهو قرب دلالة التدبر من دلالة التفكر، أو أنه معنى من معاني التدبر كما ذكر بعض أهل اللغة، بأن التدبر هو التفكر في عواقب الأمور وقد اشرت الى هذا المعنى في تعريف التدبر فأود توضيحه بشكل أكثر تفصيلاً.

قبل البحث في هذا الموضوع أود أن أذكّر بما نقلته سابقاً عن أئمة الإعجاز وكيف أن الكلمة في القرآن تأتي بالمكان المناسب الأشكل لها به، وهذا هو سر الإعجاز، فلا يمكن أن يكون هناك ترادف بين الكلمتين في المعنى هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإننا لو تتبعنا الدلالتين لوجدنا أن التفكر دائماً يذكر في الأمور التي هي موجودة مستمرة، فينظر إليها طلباً للتفكر في جريانها وحدوثها، أما التدبر يكون في النظر في آخر الشيء ونهايته وبعد حدوثه لغرض فهمه أو الاعتبار به. قال العسكري:(إن التدبر: تصريف القلب في النظر في العواقب والتفكر تصريف القلب في

([1]) الذهبي، شمس الدين أبوعبد الله محمد بن أحمد(ت 748هـ)، **سير أعلام النبلاء**، ط الثالثة، 25م، (تحقيق مجموعة بأشراف شعيب الأرناؤوط)، نشر مؤسسة الرسالة، 1405هـ - 1985م، ج2، ص487.

([2]) ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، ج2، ص324.

([3]) ابن منظور، **لسان العرب**، ج4، ص273.

النظر في الدلائل)[1]. أما فيما يتعلق بورودها في كتاب الله، فقد كانت جميعها موجهةً إلى التدبر في السماع إلى خطاب الله، وهذا ما يؤكد على معنى هذه الدلالة وأنه متعلق بنهاية الأمر، فلا يمكن أن يكون هناك وعي وفهم لأي خطابٍ إلا بعد اكتماله وانتهائه.

أما عن دلالة التدبر وعلاقتها في الاعتبار فقد وجدت أنها جاءت في القرآن بأربعة مواطن في بعضها ذكر لحرف النون وفي أخرى حذفه مع الإبدال الذي نتج عنه تضعيف للكلمة، وهذا من الأساليب البلاغية في القرآن، وان الكلمة التي فيها ذكر وتطويل تفيد التفصيل والمضعفة تفيد المبالغة والإكثار[2].

أما فيما يخص هذه الدلالة وسبب ذكر حرف النون في مواطن، وحذفه في أخرى أو إبداله؛ فهو متعلق بالسياق القرآني، لأننا إذا أتينا إلى الدلالة التي فيها ذكر لحرف النون كان في موطنين الأول في قوله تعالى: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا﴾[النساء: 82] والثاني في قوله: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[محمد: 24]. أما في موطن آخر قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءهُمُ الأَوَّلِين﴾[المؤمنون: 68]. فبالنظر للآيتين الآتي ذكر فيهما حرف النون كان السياق يتطلب طول تأمل وتكرار تدبر في ما جاء بالقرآن كاملاً، وهذا يحتاج إلى وقت أطول، فناسب السياق الذكر والطول في الدلالة، وفي الآية الأخرى يتطلب السياق عمق في التدبر ومبالغة فيه، والتأمل في أمر مباشر محدد؛ فناسب السياق مع القول أو الآيات بحيث يقف مع الآية ويتدبرها، فناسب الإبدال بالتضعيف مع الحذف[3]. وكذلك فإن حال الإنسان الغالب عليه أن يمر على آيات من القرآن عند القراءة، ولا يمر على القرآن كاملاً، فناسب أن يذكر بأن يتدبر ما يمر به من آيات ويبالغ في هذا التدبر.

ولو أخذنا كل آية على حدة، ونظرنا فيها وتأملناها؛ نجد أنها تدعو إلى الاعتبار، ولكن بأسلوب يختلف عن الآخر؛ ففي قوله تعالى: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا﴾[النساء: 82]. نجد هنا دعوة الاعتبار جاءت بالمقارنة بين الاختلافات، أي: يا أيها

([1]) العسكري، **الفروق اللغوية**,ج1,ص75.
([2]) السامرائي، **بلاغة الكلمة في التعبير القرآني**، ص45.
([3]) السامرائي، **بلاغة الكلمة في التعبير القرآني**، ص49.

المشركون! أنتم أهل اللغة والبلاغة والفصاحة وأقمتم الأسواق والمحافل اللغوية، كيف لا تستطيعون أن تنظروا وتتدبروا في هذا القرآن؛ فتروا اختلافه عن غيره؟ ويدعوكم ذلك إلى الاعتبار بأنه من عند الله؛ فتؤمنوا به وترجعوا عن عنادكم وكفركم. وإنك أيها القارئ للقرآن عند تدبره لا يمكن أن تجد ما يريبك في كتاب الله، وأنه من عنده سبحانه، أو ما يناقض بعضه بعضاً، أو أن فيه كلاماً يجافي الحقيقة والفضيلة أو يدعو إلى ارتكاب الشر والفساد، ويجد فيه اليقين بأنه من عند الله عز وجل، وهذا ما اشار اليه ابن عاشور بأن الاستفهام الإنكاري الذي جاء في بداية الآية كان تعجباً وتوبيخاً لهم لعدم تدبرهم للقرآن واعتبارهم بما جاء فيه، مع تهيئة سبل التدبر لهم، فكان عدم تدبرهم سبباً في عدم اعتبارهم بما جاءهم به وبقاءهم على الشك وإضمار الكفر وإظهار الإسلام[1]. كما بين ابن عطية أن النظر في هذه الآيات يتضمن مواطن الحجة في القرآن، فتدبرهم ونظرهم في تأويلات الأشياء وعواقبها تظهر لهم الأدلة والبراهين على أنه من عند الله فيعتبر الإنسان بما جاء بها[2]. وعن هذا السؤال قال ابو السعود:(هو انكار واستقباح لعدم تدبُّرهم القرآنَ وإعراضِهم عن التأمل فيما فيه من موجبات الإيمان)[3]. وذكر الطبري أن تدبرهم للقرآن يبعثهم على التيقن بأن الذي جاءهم به النبي صلى الله عليه وسلم هو الحق من ربهم فيطيعوه ويتبعوا أوامره[4]. فالتدبر للقرآن باعث على الاعتبار بعاقبة هذا التدبر؛ لأن النظر في دبر هذه التوجيهات الربانية التي جاءت الآيات القرآنية، داعية إليها كفيلة بأن يعتبر الإنسان بما يمر به من توجيهات.

وفي دعوته في الموطن الآخر أيضاً الذي يدعو فيه إلى تأمل وتدبر القرآن بالعموم، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[محمد: 24]. فهناك استفهام استنكاري أيضاً بعدم التدبر، لكن بأسلوب آخر وهذا أيضاً دلالة على روعة نظمه وسبكه، ففي الأولى نظر في الاختلاف بينه وبين غيره، وهنا ذكر سبب آخر وهو قفل القلب عن التدبر؛ لأنه لا يمكن أن يقرأه قارئ ولا يتدبر فيه إلا من كان قلبه مقفلاً لا يعي ما يقرؤه؛ لأن الحكمة من إنزاله هي تدبر آياته فلذلك جاء التوبيخ على عدم تدبره وهو الذي من عظمته قد مات جماعة عند سماعه، وخشعت الجبال لنزوله، وبعد كل هذا الخشوع والتدبر لا بد أن ينتج عنه الاعتبار بما جاء به[5].

ومما يؤكد على دلالة الاعتبار في هذا الموطن تلك الاستعارة المكنية التي تظهر جمال

([1]) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج5، ص138.
([2]) ابن عطية، **المحرر الوجيز**، ج2، ص99.
([3]) ابو السعود، **إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم**، ج2، ص207.
([4]) الطبري، **تفسير الطبري**، ج8، ص567.
([5]) الشنقيطي، **أضواء البيان**، ج6، ص345.

وروعة هذا الكتاب العظيم عند تشبيه القلوب بالأبواب أو الصناديق المقفلة التي لا يستفاد منها ما لم تفتح، فكأن القلوب إذا لم تفتح لفهم وتدبر القرآن لا يمكن أن تفهم أو تعتبر بما يراد منها، ومما يدل على ذلك تنكير (قلوب) بحيث إن أيَّ قلب لا يتدبر فهو مقفل عن الاعتبار[1].

وقد ذكر الطبري أنها موجهة إلى المنافقين لينظروا إلى مواعظ الله التي وعظهم بها في آيات القران وحججه التي بينها لهم ليبن لهم ما هم عليه من الخطأ، فيرجعوا عما هم فيه، أم أن على قلوبهم أقفالاً تجعلهم لا يعقلون هذه المواعظ والعبر[2]. لان التدبر للقرآن يزيل الغشاوة، ويفتح النوافذ، ويزيل الهموم، ويسكب النور، ويحرك المشاعر، ويستجيش القلوب، وينير البصيرة، ويحيي الضمير[3]، فيعتبر ويعمل به ويناضل من أجل تطبيقه في نفسه وفي من حوله. وهذا التدبر كان بعموم القرآن؛ فهو لأجل أن لا نمر على شيء منه إلا ونقف عنده متأملين متدبرين، ولنكون بعد هذا من المعتبرين.

أما لو وقفنا مع الدلالة التي فيها إبدال، نجد أنها جاءت مع ذكر القول والآيات دون ذكر القرآن بالعموم، وهذا تخصيص بعد تعميم زيادةً في دلالة التدبر ومبالغة فيها؛ لكي يتم الاعتبار، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءهُمُ الأَوَّلِينَ﴾[المؤمنون: 68]. فهنا ذكر القول دون القرآن؛ ليخاطبهم بما يقولون؛ حيث إنهم يزعمون أن هذا من قول النبي صلى الله عليه وسلم، فجاء التوجيه لهم بأن يتدبروا قوله وما جاء فيه، فيتعرفون ويعتبرون بأنه ليس بقوله، بل هو وحي من الله أنزل على نبيه ليبلغكم به، والله اعلم؛ كما ذكر ابن عاشور أن في هذا التدبر قطعاً لمعاذيرهم وعللهم، لأن الذي أرسل إليهم معروف أمره وحاله عندهم، مخبور سره وعلنه لهم، وأنه لا يمكن أن يأتيهم بباطل، ولم يأتهم لنيل من دنياهم ولا استعطاء من أموالهم، وأن هذا القول جاء به من عند الله ليدعوهم إلى دين ربهم[4]، فتدبر قوله مدعاةٌ إلى الاعتبار به والأخذ بما جاء به. فدلالة التدبر واضحة في طلب أخذ العبرة والعظة مما يتدبر بحيث أنها تعقب لظواهر الألفاظ ليعلم ما يدبر ظواهرها من المعاني المكنونة والتأويلات اللائقة[5].

أما في قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾[ص: 29]. نجد دعوة الاعتبار في طلب التدبر موجود أيضاً، ولكن بطريقة مختلفةٍ عن الأخرى؛ بحيث إن السابقة كانت

([1]) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج26، ص114.
([2]) الطبري، **تفسير الطبري**، ج22، ص179.
([3]) قطب، **في ظلال القران**، ج6، ص3297.
([4]) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج18، ص87.
([5]) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج23، ص252.

موجهةٌ لمنكري القرآن من الكفار، ولذلك جاء بالصيغة التي تناسب سياق حديثهم وإعراضهم، أما في هذا الموطن فجاء الطلب مباشر واضح مع تأكيد على أن الهدف من الإنزال هو التدبر والاعتبار الذي يعقب هذا التدبر.

ولذلك قيل أي: يتدبرها الناس ويتفهمونها ويتعقلونها ويمعنون النظر فيها حتى يفهموا أنواع الهدى التي بها ويتعظون بهذا التدبر[1].

قال الطبري رحمه الله فيما يتعلق ببيان هذه العلاقة وأن التدبر دعوة لها قوله: (وفي حَثِّ الله عز وجلّ عباده على الاعتبار بما في آي القرآن من المواعظ والبينات قوله جل ذكره لنبيه صلى الله عليه وسلم: { كِتَابٌ أنزلنَاهُ إلِيكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذكَّرَ أُولُو الألبَابِ }"[2].

([1]) الشنقيطي، **أضواء البيان**، ج6، ص344.
([2]) الطبري، **تفسير الطبري**، ج1، ص82.

الفصل الثاني

دلالة لفظ الاعتبار في الآيات القرآنية – دراسة سياقية

المبحث الأول

دلالة الاعتبار في سياق القصة القرآنية

المطلب الأول: مفهوم القصة القرآنية

أولاً: القصة لغة

القصة من مادة قصص ويراد منها تتبع الشيء، قال ابن فارس:(القاف والصاد أصلٌ صحيح يدلُّ على تتبُّع الشَّيء. ومن ذلك قولهم: اقتصَصْتُ الأثر، إذا تتبَّعتَه)[1]. ويتصل بهذا المعنى عدة معان هي على النحو التالي:

1- المتابعة وتتبع الأثر: ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُون﴾[القصص: 11]. أي تتبعي أثره، ومنه قصصت أثره وقصصته[2]. وقص آثارهم يقصها قصاً وقصصاً تتبعها بالليل، وقيل: هو تتبع الأثر أي وقت كان، حيث قال تعالى: ﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾[الكهف: 64]. أي: رجعا من الطريق الذي سلكاه يقصان أثرهما أي يتّبعانه[3].

2- القصاص في الجروح: وذلك أن يفعل به مثل ما فعل بالأول، كأنه تتبعه في نفس الجرح[4].

3- البيان والإعلام: ومنه قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾[يوسف: 3] أي: نبين لك أحسن البيان[5].

4- القِصَّة والقصص: وهي الخبر، وجمعها قصص، وتقصصت كلامه؛ أي: حفظته، وتقصصت خبره؛ أي: تتبعته[6]. ومنه قولك: قص عليه الحديث، وتتبعت قول فلان؛ أي:

([1]) ابن فارس، مقاييس اللغة، ج5، ص11.
([2]) الزمخشري، **اساس البلاغة**، ج2، ص82.
([3]) ابن منظور، **لسان العرب**، ج7، ص75.
([4]) ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، ج5، ص11.
([5]) ابن منظور، **لسان العرب**، ج7، ص73.
([6]) ابن سيدة، **المخصص**، ج3، ص475.

حديثه وخبره، وقد اقتصصت الحديث؛ أي: رويته من وجهه، وقد قص عليه الخبر قصصا[1].

5- القطع والقص: ومنه قولك قصصت الشيء؛ أي: قطعته، وقص الشعر أو الظفر يقصهما قصاً؛ أي: قطع منهما بالمقص[2].

ثانياً: القصة اصطلاحاً:

إن القصة في معناها الاصطلاحي، قد ذُكر لها عدة تعاريف. حيث قال الشيخ ابن عثيمين:(هي الإخبار عن قضية ذات مراحل، يتبع بعضها بعضاً)[3]. وقال عنها أحمد الهاشمي:(والقصص: هي معرفة أحوال السابقين، وكانوا يعرفون منها ما كان عليه أسلافهم، وبعض مجاوريهم من الأحوال المأثورة، ووقائع أيامهم المشهورة، كقصة الفيل، وحرب البسوس. وحرب الفجار)[4]. وقال الدكتور محمد نجم:(هي: مجموعة من الأحداث يرويها الكاتب، وهي تتناول حادثة واحدة أو حوادث عدة، تتعلق بشخصيات إنسانية مختلفة، تتباين أساليب عيشها وتصرفها في الحياة، على غرار ما تتباين حياة الناس على وجه الأرض، ويكون نصيبها في القصة متفاوتا من حيث التأثر والتأثير)[5].

ومما سبق يرى الباحث أن القصة في الاصطلاح هي: الحكاية التي يتبع فيها القاص الحدث أو الأحداث، التي تتعلق بأشخاص وأحوال سابقة، يرويها بهدف إخبار السامع وتشويقه، ويكون ذلك إما لتسليته، أو لتنبيهه.

ثالثاً: القصة القرآنية:

لو نظرنا إلى مفهوم القصة بإضافتها إلى القرآن الكريم بحيث تصبح قصة قرآنية، نجد أنها تختلف عن ذلك المفهوم للقصة الأدبية. كما أنه ليس ذلك المفهوم اللغوي الذي يعطي تعريفاً لمعنى القصة، بل البحث في مفهوم أعمق وأبعد من ذلك. قال سيد قطب:(القصة في القرآن ليست عملاً فنيًا مستقلاً في موضوعه وطريقة عرضه وإدارة حوادثه كما هو الشأن في القصة الأدبية الحرة، التي ترمي إلى أداء غرض فني طليق إنما هي وسيلة من وسائل القرآن الكريم الكثيرة إلى أغراضه الدينية)[6].

وقال الدكتور البيومي:(إن التصوير الأدبي سمة القرآن في كل ما يقول حتى أن آيات التشريع

([1]) الجوهري، **الصحاح**، ج4، ص188.

([2]) الزبيدي، **تاج العروس وجواهر القاموس**، ج18، ص98.

([3]) العثيمين، محمد بن صالح بن محمد(ت 1421هـ)، **أصول في التفسير**، ط1، م1,(تحقيق قسم التحقيق بالمكتبة الإسلامية)، المكتبة الإسلامية، 1422هـ، ص50.

([4]) الهاشمي، **جواهر الأدب**، ج2، ص22.

([5]) نجم، الدكتور محمد يوسف، **فن القصة**، ط7، م1، دار الثقافة، بيروت، سنة1979م، ص9.

([6]) قطب، سيد(ت 1966م)، **التصوير الفني في القرآن**، ط16، م1، دار الشروق، القاهرة، مصر، 2002م، ص143.

الخالص لا تخلو من تصوير بلاغي يضفي عليها الروعة والتأثير، وهو في القصة القرآنية أوفى وأتم إذ أنه ينقل المشَاهِد والحركات، ويصور أدق الملامح وأعمق الخلجات بحيث يكون إيحاؤه تعبيراً آخر يرفرف على الألفاظ فيكسبها من المعاني ما لا ينحصر في حدود القواميس)[1].

أما فيما يتعلق بتعريفها، قال الرازي:(القصص هو مجموع الكلام المشتمل على ما يهدي الى الدين ويرشد الى الحق ويأمر بطلب النجاة)[2]. ولكن هذا التعريف عليه تحرز حيث يدخل فيه الخطب والمواعظ. وقال القطان:(وقصص القرآن: أخباره عن أحوال الأمم الماضية، والنبوات السابقة، والحوادث الواقعة - وقد اشتمل القرآن على كثير من وقائع الماضي، وتاريخ الأمم، وذكر البلاد والديار، وتتبع آثار كل قوم، وحكى عنهم صورة ناطقة لما كانوا عليه)[3]. وفي هذا التعريف لم يذكر القطان السبب الرئيس الذي من أجله سيقت هذه القصص وهي العبر والمواعظ. أما السيوطي فقد اسماه بعلم القصص حيث قال:(وعلم القصص وهو الاطلاع على أخبار الأمم السابقة، والقرون الماضية، ليعلم المطلع على ذلك، سعادة من أطاع الله، وشقاوة من عصاه)[4].

أما ما يراه الباحث فهو أن القصة القرآنية هي: ذلك التصوير الفني البديع، الذي قصة القرآن الكريم للأحداث التي حصلت مع من سبق، باختيار ما يناسب كل زمن من أزمنة دعوة النبي صلى الله عليه وسلم، ويكون المراد منها الاعتبار بمحل العبر والاستفادة من المواعظ في تلك الاحداث.

و قد كانت تدور أحداث القصة القرآنية حول أمرين هما:

1- قصص القرآن المتحدثة عن البشر

2- قصص القرآن المتحدثة عن غير البشر

([1]) البيومي، الدكتور محمد رجب(ت 2011م)، **البيان القرآني**,ط3، 1م، مجمع البحوث الإسلامية، دار النصر، القاهرة، مصر، 1971م، ص205.

([2]) الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج8، ص250.

([3]) القطان، مناع خليل(ت 1999م)، **مباحث في علوم القرآن**، ط2,م1، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1999، ص306.

([4]) السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن بن ابي بكر(ت 911هـ)، **الإتقان في علوم القرآن**، م4,(تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1974م، ج3، ص364.

المطلب الثاني: دلالة الاعتبار في قصص القرآن المتحدثة عن البشر

إن القران الكريم كتاب دعوة دينية وتشريع رباني لهذا الدين، وقد تنوعت أساليبه ووسائله لكي يفهم الناس التشريع ويستمعوا إلى ما يحمله من دعوة إلى توحيد الله وأن هذا التنويع في الأسلوب كان من عدة أوجه ومن خلال عدة طرق فمرة نجد فيه الترغيب وتارة الترهيب، وفي أحيان أخرى بتغيير صيغة الخطاب، سواء كان عاماً أو خاصاً وتنويع هذا الخاص كذلك؛ كأن يوجه إلى النبي صلى الله عليه وسلم أو إلى المتقين أو إلى المؤمنين إلى غير ذلك من الأساليب الأخرى.

وإنني في هذا المبحث سوف اتطرق لأسلوب من هذه الأساليب الربانية التي فيها من التصوير الفني ما يأخذ الألباب ويدهش العقول، ألا وهو القصص القرآني والذي اشر اليه ابن عاشور بأن الغرض منه هو الاعتبار بمحل العبرة[1]. ولذلك ذكره القرآن في مواطن كثيرة ومتنوعة من قصص للبشر وغير البشر.

وقد جاءت قصص البشر في القرآن الكريم متنوعةً، بحيث جاء ذكر قصص الأنبياء والصالحين وحتى المعاندين المكذبين، وما ذلك إلا لتنوع الدلالة للاعتبار بما تحمله من دلالات تدل على الأخذ به، وقد تم تقسيم هذا التنوع على النحو التالي:

1-قصص الأنبياء

2-قصص الصالحين

3-قصص الكافرين المعاندين

أولاً: قصص الأنبياء

إن من روعة القصص القرآني أنه يحمل عدة أهداف في القصة الواحدة، وقد تحمل القصة عدة دلالات بين طياتها، يقول الدكتور البيومي:(إن القصة القرآنية قد ساقها الله لتأكيد قيم دينية شتى فهي تحارب الوثنية، وتؤصل المبادئ الخُلقية، فتدعو الى العزة النفسية والكرامة الإنسانية، كما تطمئن صاحب الرسالة وتواسيه في شدائده)[2]. وهذا ما عليه قصص الأنبياء عليهم السلام حيث نجد أن القصة الواحدة متنوعة الأهداف. وهذا التنوع يهدف إلى الاعتبار بما جاء فيها من توجيهات، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى في كتابة العزيز هذا التنوع مؤكداً عليه حيث قال تعالى: ﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءكَ فِي هَـذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[هود: 120]. فبين سبحانه أن الهدف من هذه القصص تثبيت النبي صلى الله عليه وسلم لأجل أن يصبر على طريق

([1]) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج1، ص25.

([2]) البيومي، **البيان القرآني**، ص207.

تبليغ الرسالة، ويعلم أن كل ما أصابه أو يمكن أن يصيبه في المستقبل قد مر على غيره من الأنبياء. وأن الذي عامله به قوم عومل به الرسل عليهم السلام من قبله[1]. وأن هذا الطريق محفوف بالأعداء والمتربصين بهذه الدعوة، وسيحاولون القضاء عليها، وأن كل ما يحدث ليس بمستغرب؛ لأنه قد حصل من قبل فيزداد ثباتاً.

ومن دقة القرآن وجمال سبكه أنه عقب بعد هذا التثبيت بقوله سبحانه ﴿ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ ﴾[هود: 120] أي: أنك على حقّ، كما أن الذين قبلك كانوا على الحق، ولأجل هذا الحق حصل ما حصل لهم، ومن أسباب ثباتهم على دعوتهم أنهم كانوا على الحق لا يضرهم من وقف ضدهم أو خذلهم أو وقف في طريقهم؛ فيؤخذ منها العبرة ويعتبر بمواقفهم هذه ويقتفى أثرهم. وكما هو معلوم أن الخطاب إذا كان موجهاً للنبي صلى الله عليه وسلم يكون متعدياً إلى غيره من الناس؛ لأنه هو قدوتهم في ذلك. ولأن القرآن لم ينزل خاصاً للرسول صلى الله عليه وسلم، بل رحمة ونور وهداية للعالمين؛ فيثبت فؤاد كل من سمعه[2]. ثم ينتقل الخطاب القرآني لبيان أنه كما أن هناك تثبيتاً وصبراً واقتداء بمنهج من سبق من الأنبياء، كذلك فيها مواعظ من خلال ذكر حال الذين حاولوا أن يقفوا في وجه هذه الدعوة على مر العصور، وكيف كان مآلهم، وكذلك فيه حثٌّ للمؤمنين على الثبات وعدم الرجوع عن الحق. قال ابو العباس الفاسي:(ليزيدك يقيناً وطمأنينة، وثباتاً بما تسمع من أخبارهم، وما جرى لهم مع قومهم، وما لقوا من الأذى منهم، فتتسلى بهم، وتثبت على أداء الرسالة، واحتمال أذى الكفار)[3]. فلا تجزعوا أيها المؤمنون، واتعظوا بأن مآلكم النصر على أعدائكم وتمسكوا بما أمركم به ربكم، وارجعوا وأنيبوا إليه.

وتكرار ذكر هذه القصص بحيث نجد أن القصة القرآنية قد ترد في أكثر من سورة ولنفس النبي ولكن تجد أنها تتنوع في الأسلوب والتركيز على جانب دون آخر، وبما يناسب زمناً دون آخر، كما قدمنا في مفهوم القصة القرآنية، وكل هذا فيه تذكير للمؤمنين لكي يتحقق لهم ما تقدم من تثبيت وصبر[4]، ولتكون هذه القصص مواعظ للناس يتذكرون بها؛ ليتم الهدف منها وهو الاعتبار بما جاء بها من أحداث. فعند النظر إلى الآية السابقة نجد أنها وضعت لنا الخطوط العريضة والأهداف الرئيسية من إيراد قصص الأنبياء عليهم السلام، وأن الرابط الرئيس بين هذه الأهداف هو الاعتبار

([1]) الشنقيطي، **أضواء البيان**، ج5، ص267.
([2]) ابو العباس الفاسي، **البحر المديد**، ج6، ص330.
([3]) ابو العباس الفاسي، **البحر المديد**، ج3، ص348.
([4]) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج12، ص192.

بما جاء بها؛ لأنه بدون هذا الاعتبار لا يمكن أن تحدث فائدة من قص هذه القصص، ولو أعيدت مرات عديدة.

ولو أردت أن ابحث في جميع قصص الأنبياء ودلالات الاعتبار التي وردت فيها، لطال بي المقام، ولكن سأذكر بعض الأمثلة لبعض قصص الأنبياء، لبيان علاقة قصص الانبياء بالاعتبار.

ومن أول تلك الدلالات التي تدل على الاعتبار في قصص الانبياء قصة سيدنا آدم عليه السلام؛ لأنها هي القصة الأولى التي حدثت، ولأننا نجد أن دلالات الاعتبار تتركز على بيان العدو الأول للبشر، مع أنها ذكرت في سياقات مختلفة من خلال ذكر قصة آدم مع إبليس عليه لعنة الله، وكيف أن الاستماع لوسوسته تسببت بإنزال أبينا آدم من الجنة، وكيف أن الله سبحانه عرض هذه القصة في أول سورة بعد الفاتحة، حيث قال تعالى:(وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (35) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ)[البقرة:36]. قال الطبري:(أضاف الله تعالى ذكره إلى إبليسَ خُروجَ آدم وزوجته من الجنة، فقال: "فأخرجهما" يعني إبليس "مما كانا فيه"، لأنه كانَ الذي سَبَّب لهما الخطيئة التي عاقبهما الله عليها بإخراجهما من الجنة)[1]. وكأنه سبحانه يبين لنا الهدف الأول والرئيسي في طاعته هو عدم الاستماع إلى وسوسة الشيطان واتباع خطواته، فيجب علينا من خلال هذه القصة وهذه الأحداث التي دارت بين أبينا آدم عليه السلام وإبليس اللعين أن نعتبر مما حصل لسيدنا آدم عليه السلام، وهي كما يلي:

1- عدم اتباع خطوات الشيطان، وأنها من الأسباب التي توقع الإنسان في الخطأ. حيث قال تعالى:(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)[النور:21]. فهذه الآية وإن جاءت خاصة للمؤمنين في حادثة معينه فإن المراد منها كل إنسان يجب عليه الابتعاد عن خطوات الشيطان لأنها ستؤدي به الى الفواحش عياذ بالله. قال الرازي:(والله تعالى وإن خص بذلك المؤمنين فهو نهي لكل المكلفين، وهو قوله: "ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر"، ومعلوم أن كل المكلفين ممنوعين من ذلك)[2].

2- كما أن من أسباب الوقوع في الخطأ الحسد، حيث أنه هو السبب الأول في معصية إبليس لربه سبحانه؛ عندما أمره للسجود لآدم قال تعالى:(وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا

([1]) الطبري، **تفسير الطبري**، ج1، ص524.
([2]) الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج23، ص347.

لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (11) قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ)[الأعراف:12]. قال رشيد رضا:(حسده على هذا التكريم، فحمله الحسد على الاستكبار والفسوق، عن أمر الله)[1]. فقد ذكر ابن عاشور: أن الحسد هو أول ذنب عصي الله به وكان سبب أول جريمة ارتكبت على الأرض عندما حسد أحد ابني آدم اخيه فقتله[2].

3- فيها دعوة إلى الاعتبار بأن الشيطان عدو للإنسان ويحاول فتنته بأن يغويه ويوقعه بما يغضب الله. قال تعالى:(يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ)[الأعراف:27]. قال الزمخشري في قوله تعالى:(إِنَّهُ يَرَاكُمْ)، (هُوَ تعليل للنهى وتحذير من فتنته، بأنه بمنزلة العدوّ المداجي يكيدكم ويغتالكم من حيث لا تشعرون)[3]. ومنه أيضاً قوله تعالى:(إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ)[فاطر:6]. قال ابوحيان:(عداوته سبقت لأبينا آدم، وأي عداوةٍ اعظم من أن يقول في بنيه "لأغوينهم أجمعين","ولأضلنهم")[4].

4- الاعتبار بأن ذكر الانسان لربه والمداومة على ذلك تقي الإنسان وتحميه من نزغات الشيطان ووسوساته. وأنه يجب عليه الإستعاذة من هذه الوسوسات والنزغات، وعليه بالتوبة والإنابة إلى الله وحدة، وأنه هو الذي يقبل التوبة من عبادة ويغفر لهم ويعفو عنهم. قال تعالى:(وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (200) إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ)[الأعراف:201].

ومن القصص التي ذكرت أكثر من مره في كتاب الله قصة سيدنا موسى عليه السلام ولكن في كل موطن وجدتها تختلف عن الموطن الآخر وبأحداث أخرى، وكل هذا لمناسبة الواقع التي تساق به؛ فوجدت هذه القصص تحمل عدة دلالات للاعتبار منها:

1- إن قصص الصراع مع فرعون ومحاولة صد موسى وقومه عن دينهم، كما في قوله تعالى:(وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (127) قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)[الأعراف:127]. فهذه

([1]) رشيد رضا، **تفسير المنار**، ج8، ص293.
([2]) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج5، ص31.
([3]) الزمخشري، **الكشاف**، ج2، ص98.
([4]) ابو حيان، **البحر المحيط**، ج9، ص14.

الآية فيها مناسب ذلك لحال النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه في بداية الإسلام وضعفهم ومنعهم من الصدع بالحق، وبيان أن الغلبة ستكون لهم فيعتبروا بنصر موسى على فرعون، وأن العاقبة لعبادة المؤمنين. كما أنها رسالة الى جميع الداعين الى توحيد الله ليعتبروا بأن الغلبة والنصر لدين الله. قال سيد قطب:(فلا ينظر الداعون إلى رب العالمين، إلى شيء من ظواهر الأمور التي تخيل للناظرين أن الطاغوت مكين في الأرض غير مزحزح عنها، فصاحب الأرض ومالكها هو الذي يقرر متى يطردهم منها! وإن العاقبة للمتقين، طال الزمن أم قصر)[1].

2- إن قصة خروج موسى عليه السلام وهروبه من فرعون عندما حاول قتله كما في قوله تعالى:(وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (20) فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)[القصص:21]. فهذا الخروج يذكر بحال النبي صلى الله عليه وسلم وخروجه إلى الطائف بحاثاً عن من ينصره، وكذلك عندما أراد مشركي قريش قتله فخرج مهاجراً الى المدينة. فهذا فيه تسليةً له صلى الله عليه وسلم. وبيان للمؤمنين بحال الأنبياء وما يلاقون في سبيل تبليغ دين الله، فيدفعهم ذلك على التأسي بهم، والاعتبار بحالهم، والصبر على ما يلاقون في سبيل هذا الدين. كما أن في خروج موسى وقومه خوفاً من فرعون كما قال تعالى:(وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى)[طه:77]. مناسبةً لحالهم وهروبهم من المشركين وهجرتهم في بداية الإسلام إلى الحبشة. ففيها دلالة على أن طريق الحق مليءٌ بالعقبات، وعليهم الاعتبار بذلك والصبر في سبيل تبيلغ أمر الله.

3- أن النعم تدوم بالشكر، فطلب موسى عليه السلام من قومه، بتذكر نعم الله وشكرها، بيان أن النعم لا تدوم إلا بالشكر، ويكون ذلك بطاعة الله والوفاء بمواثيقه من خلال التمسك بتوجيهاته كما قال تعالى:(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ)[المائدة:20]. قال ابن عاشور:(ومناسبة موقع هذه الآيات أن القصة مشتملة على التذكير بنعم الله تعالى عليهم وحث على الوفاء بما عاقدوا الله عليه من الطاعة)[2].

4- إن المخالفة والإحساس بعدم الحاجة إلى التوجيه، هو الذي يسبب انحراف الأمة عن الطريق

([1]) سيد قطب، **في ظلال القرآن**، ج3، ص1355.
([2]) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج6، ص161.

القويم. لأن عدم الاستماع الى كلام القائد الذي يوجه الأمة الى ما ينفها، يكون سبب في ضياعها وتيهها، كما حصل مع بني إسرائيل من التيه في الأرض عندما خالفوا كلام موسى عليه السلام. حيث قال تعالى:(قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (24) قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (25) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ)[المائدة:26]. فهذه القصة كأنها تؤسس للمجتمع الإسلامي في المدينة من خلال اعتبارهم بما حدث لبني إسرائيل من الضياع بعد أن خالفوا كلام قائدهم، وهو ما ذكره ابو العباس الفاسي بأن هذه الآية فيها بيان لفضيلة الأمة المحمدية وكمال أدبها مع نبيها، وطاعة له، واستشهد بقول المقداد بن الأسود يوم الحديبية حين صُد النبي صلى الله عليه وسلم عن البيت أنه قال:(أما والله ما نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: "فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقاتِلا إِنَّا هاهُنا قاعِدُونَ"، ولكن نقاتل عن يمينك وشمالك، ومن بين يديك ومن خلفك، ولو خُضت البحر لخضناه معك، ولو تسنَمت جبلاً لعلوناه معك، ولو ذهبت بنا إلى بَرك الغماد لتبعناك، فلما سمعها أصحاب النبي صلى الله عليه وسلّم تابعوه على ذلك، فَسُرَ صلّى الله عليه وسلّم بذلك وأشرق وجهه)[1]، أما الذي وجدته أن قول المقداد كان يوم بدر، فقد روى البخاري عن عبدالله بن مسعود أن المقداد يوم بدر قال:(يا رسول الله إنا لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى "فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقاتِلا إِنَّا هاهُنا قاعِدُونَ"، ولكن امض ونحن معك فكأنه سري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم)[2]. وذكر سيد قطب أن ما قاله المقداد هو بسبب أن المسلمين قد استوعبوا من القصص التي قصها الله عليهم[3]. فهذا فيه دلالة على أن هذه الأمة بحاجه إلى قائد يوجهها ويذكرها باستمرار، ويحث المجتمع إلى التمسك والفضيلة والإيمان بالله.

كما وجدت في قصة إبراهيم عليه السلام دعوةً إلى الاعتبار من خلال ما دار بها من أحداث؛ وقد بينها القرآن الكريم في عدة مواطن هي:

1- إن تفكر سيدنا إبراهيم في الكون دلالة للاعتبار بالبحث عن الحق وأتباعه. كما بين ذلك سبحانه وتعالى في قوله:(وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (75) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (76) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (77) فَلَمَّا رَأَى

([1]) ابو العباس، **البحر المديد**، ج2، ص27.

([2]) البخاري، ابو عبدالله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة(ت 256هـ)، **الجامع المسند الصحيح**، ط1، 9م، (تحقيق محمد زهير الناصر)، دار طوف النجاة، 1422هـ، كتاب تفسير القرآن، ج6، ص51.

([3]) سيد قطب، **في ظلال القرآن**، ج2، ص871.

الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (78) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)[الأنعام:79]. فهذه الآيات فيها دلالة على أن البحث عن الحق وأتباعه هو ضالة المؤمن، وأنه أذا كان على هذا الحق يجب أن لا يحيد عنه ويصبر على ما يلقى في سبيله. ولا يهمه كثرة المعارضين له. قال الطبري:(وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن خليله إبراهيم عليه السلام، أنه لما تبيّن له الحق وعرَفه، شهد شهادةَ الحقّ، وأظهر خلاف قومِه أهل الباطل وأهل الشرك بالله، ولم يأخذه في الله لومة لائم، ولم يستوحش من قِيل الحقِّ والثبات عليه، مع خلاف جميع قومه لقوله، وإنكارهم إياه عليه)[1].

2- إن في قصة إلقاء سيدنا إبراهيم عليه السلام في النار فيه دلالة على التضحية من أجل هذا الدين، وبيان أن النصر عاقبة المتقين. كما قال تعالى:(قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (68) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ (69) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ)[الأنبياء:70]. قال سيد قطب عندما ذكر قصة حرق ابراهيم عليه السلام:(وكان من أغراض القصة بيان أن الله ينصر أنبياءه في النهاية، ويهلك المكذبين، وذلك تثبيتاً لمحمد صلى الله عليه وسلم، وتأثيراً في نفوس من يدعوهم الى الإيمان)[2]. فيه دلالة على التضحية في سبيل الله، وعدم الخوف من الأعداء، أو الرجوع عن الحق. والاعتبار بأن العاقبة للمتقين وأن النصر والتمكين حليف المؤمنين.

3- إن ثبات سيدنا ابراهيم عليه السلام على الحق دون أنصار أو أعوان في مقابلة كل هؤلاء الكفار، مع أنه كان وحيداً، ولكن هذه الوحدة لم تمنعه من أن يكون طائعا لأمر الله ثابتاً عليه، ولذلك وصفه الله بالأمة، كما قال تعالى: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}[النحل: 120]. قال ابن عاشور:(ووصف ابراهيم عليه السلام بذلك وصف بديع جمع لمعنيين. احدهما: أنه كان في الفضل والفتوة بمنزلة أمة كاملة. والثاني: أنه كان أمة وحدة في الدين لأنه لم يكن في وقت بعثته موحد لله غيرة)[3]. وقال ابوالسعود عندما ذكر الأقوال في كون ابراهيم أمه:(أو لأنه صلى الله عليه وسلم كان مؤمناً وحده والناسُ كلُّهم كفارٌ)[4].فهذا فيه دلالة على الثبات الحق وعدم الإغترار بكثرة اهل الباطل. فيجب الاعتبار بما حدث مع سيدنا إبراهيم، وكيف كان ثباته في سبيل تبليغ دين الله وطاعته.

([1]) الطبري، **تفسير الطبري**، ج11، ص487.
([2]) سيد قطب، **التصوير الفني في القرآن**,ص151.
([3]) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج14، ص315.
([4]) ابو السعود، **إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم**، ج5، ص149.

فهذه جملة من بعض قصص الانبياء عليه السلام، ودلالات الاعتبار التي جاءت فيها، لبيان علاقة هذه القصص بالاعتبار.

ثانياً: قصص الصالحين:

أن القرآن الكريم كما ذكر لنا قصص الأنبياء، لبيان العبرة في ذلك، فإنه كذلك قد تناول جانب آخر من قصص البشر، وهي قصص الصالحين منهم، لكن هناك سؤال يتبادر إلى الذهن عند التدبر والتأمل في السياق القصصي للقرآن، وهو: لماذا هذا التنوع في القصص؟ فمثلاً لماذا لم يذكر قصص الأنبياء فقط، دون ذكر قصص الصالحين، مع أنهم مشتركين بنفس المحور الرئيس لهذه القصص، وهو الدعوة إلى توحيد الله والتضحية في سبيل ذلك، وبذل الجهد من أجل ذلك، ومن باب أولى فإن قصص الأنبياء تكون كافية في سرد جميع هذه الأحداث.

فإن الباحث يرى أن سبب ذلك يكون لكمال الاعتبار بهذه الحوادث، وللتأكيد على الأخذ بهذه العبر، والاستفادة من هذه المواعظ بهذا التنوع؛ لأنه ربما يتبادر إلى ذهن بعض الناس أن هؤلاء أنبياء، ولا نستطيع أن نصبر صبرهم، أو ربما لو كان من مر بهذه الأحداث لم يكن نبي ممكن أنه لم يصبر فيكون مدخلاً للشيطان على الإنسان، ويمنعه من الاستفادة والاعتبار بما يمر به، كما أن هذا التنوع شمل الرجال والنساء؛ لأجل التأكيد على أن الجميع يجب عليه أن يتمسك بما أمر الله به، وهذا من روعة وجمال وسبك القرآن الكريم. فأتى هذا التنوع لبيان أن العمل لأجل هذا الدين يشترك فيه الأنبياء وبقية البشر، وينبغي أنهم جميعاً يصبرون ويضحون من أجله، ولهذا جاءت قصص الصالحين شاهدةً على مواقفهم تجاه دينهم وعقيدتهم، جمعنا الله بهم في جنات النعيم.

ولعل من قصص الصالحين التي أخذت مكانةً في كتاب الله: قصة لقمان الحكيم؛ حيث سميت سورة من القران باسمه، ولذلك كان من الأولى ضرب المثل بها، وذكر دلالات الاعتبار التي مرت بها، فلو رجعنا إلى بداية السورة نلمح فيها التقديم لهذه الدلالات التي حملتها قصة لقمان وهي:

1- أن من الحكمة أن يشكر الانسان الله على ما آته من نعم. حيث قال تعالى:(وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ)[لقمان:12]. قال الرازي:(وآتيناه الحكمة بأن جعلناه من الشاكرين)[1].وهذا فيه بيان أن الحكمة هي التي تبعث إلى الهدى والرحمة، وأن الحصول عليها لا يتأتى إلا للمحسنين، كما أن هذه الآية الكريمة فيها بيان لمصدرية هذه الحكمة التي حصلت للقمان، والذي يؤكد هذه الدلالة التوجيه بها في قوله تعالى: (ان اشكر لله). قال الطبري:(وجعل قوله: (أَنِ اشْكُرْ) ترجمة عن الحكمة؛ لأن من الحكمة التي كان

([1]) الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج25، ص119.

أوتيها، كان شكره الله على ما آتاهُ)[1]. وقال الزمخشري:(أنّ الحكمة الأصلية والعلم الحقيقي: هو العمل بهما وعبادة الله والشكر له، حيث فسر إيتاء الحكمة بالبعث على الشكر)[2].

2- أهمية الدعوة الى الله، وأنها من الحكمة التي يهبها الله لعبادة، وأن أولى الناس بالنصيحة هم ذوي القربى. حيث قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[لقمان:13]. فهذه الآية الكريمة فيها دلالة على الاعتبار بأن من الاعمال التي تقرب الى الله هي الدعوة الى عبادته، وأن من الحكمة القيام بها. قال الرازي في هذه الآية:(عطف على ما سبق وتقديره آتينا لقمان الحكمة حين جعلناه شاكراً في نفسه، وحين جعلناه واعظاً لغيره)[3]. وأن من الحكمة أن يبدأ الإنسان بأقرب الناس اليه. وكانت هذه الدعوة بدلالة من دلالات الاعتبار، وهي الموعظة، كما أن فيها دلالة على إدامة النصح والوعظ، وأن لا يركن الإنسان إليه مرة واحدة، بل الاستمرار عليه لعل الله أن يفتح على قلب من قدمت له النصيحة، فكان أعظم هذه المواعظ التي يجب على الإنسان الاعتبار بها هي النهي عن الشرك بالله.

3- بيان إن الشرك أكبر الظلم وأعظمه؛ كما قال تعالى:(إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)[لقمان:13]. لأن الإنسان عندما يشرك بالله فقد ظلم نفسه بتعريضها العذاب، وهل هناك أكبر من أن يظلم الإنسان نفسه، ولذلك شبه الشرك بالظلم العظيم، ولان السلامة من الشكر هي السبب في صلاح الاعمال قال ابن عاشور:(ابتدأ لقمان موعظة ابنه بطلب إقلاعه عن الشرك بالله لأن النفس المعرضة للتزكية والكمال يجب أن يقدم لها قبل ذلك تخليها عن مبادئ الفساد والضلال فإن إصلاح الاعتقاد أصل لإصلاح العمل)[4].

4- بر الوالدين، ووجوب خدمتهما، ولذلك وصى الله سبحانه وتعالى الانسان بوالديه حيث قال تعالى:(وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ)[لقمان:14]. فهذه الآية فيها دعوة الى الاعتبار بأهمية بر الوالدين والاحسان اليهما ولو كانا مشركين. ولو تأملنا في ذلك نجد أنها جاءت بعد أعظم موعظة من أكثر الناس حرصاً وخوفاً على الإنسان، وهم الوالدان، فكان إتيانها بعده تأكيداً على دورهم العظيم في النصح والإرشاد، وأنه لا يمكن أن تجد من يخاف عليك وينصح لك مثلهما. فقد أشار السيوطي أنه سبحانه أتى بها بعد النصح من الشرك؛ لبيان عظم ذنب العقوق، وأنه من أكبر

([1]) الطبري، **تفسير الطبري**، ج20، ص136.
([2]) الزمخشري، **الكشاف**، ج3، ص493.
([3]) الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج25، ص119.
([4]) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج21، ص155.

الكبائر، وهذا فيه دلالة للاعتبار بهذا الربط بين الشرك والعقوق؛ ليعتبر الناس ويبتعدوا عن الوقوع فيه[1]. قال الرازي:(إنه لما منعه العبادة لغير الله، وخدمة الوالدين قريبة منها في الصورة بين أنها غير ممتنعة عنهم، بل واجبة[2].

فكان من روعة القرآن أن أتى بهذه الوصية الجميلة التي تحمل أعظم برٍّ، بل تعدى ذلك بأن يوصى بهما حتى وهم كفار، بل زاد روعةً بأن أوصى بهما لو كان منهما أذى؛ فهل هناك أكبر من الدعوة إلى الكفر بل والإصرار على هذه الدعوة، بأن قال "وإن جاهداك" على الدخول في الشرك، فعليك أن تصبر وتصاحبهم خير صحبة وبر.

ومما يدلل أيضاً على الاعتبار في قصص الصالحين: تلك القصة التي كانت شاهدةً على الصدح بالحق وعدم الخوف والتضحية في سبيل هذا الحق، وهي ما قصه الله سبحانه وتعالى عن مؤمن آل فرعون؛ حيث قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾[غافر: 28]. فهذه الآية فيها عدة دلالات للاعتبار هي:

1- قول الحق والوقوف معه، وعدم الخوف في بيانه.
2- أن الولاء يكون للمؤمنين دون غيرهم، والدليل على ذلك أن الله قال: (من آل فرعون) أي: منهم، وليس من بني إسرائيل، ولكن إيمانه هو الذي دفعه بأن يقف معهم ضد قومه.
3- كما أن فيها دلالة واضحة على عدم السكوت عن الظلم، مهما كانت النتائج وأنه لا يمكن أن يتحلى الإنسان بهذه الشجاعه في قول هذا الحق إلا من خلال الإيمان؛ ولذلك قال الله عز وجل: "رجل مؤمن،" ولم يخبرنا الحق سبحانه باسمه حيث ذكره بالتنكير؛ لأن الهدف والغاية ليس معرفة الأسماء، بل الاعتبار بالحوادث، ولكي تكون هذه القصة متعديةً لكل رجل مؤمن يجب عليه أن يفعل كما فعل هذا الرجل المؤمن من دفع الظلم وقول الحق في وجه أكبر طاغيةً في ذلك الزمان.
4- وفيها أيضا دلالة على أن الله يقيض لأوليائه الصالحين من يدافع عنهم عند الشدائد[3].

([1]) السيوطي، عبد الرحمن بن ابي بكر جلال الدين(ت 911هـ)، **الدر المنثور في التفسير بالمأثور**، 8م، دار الفكر، بيروت، ج2، ص503
([2]) الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج25، ص120.
([3]) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج24، ص129.

5- وكذلك فيها دلالة على أن المعارضة والمحاجة لا بد أن تكون بالحجة؛ حتى يكون الحق ظاهراً مقبولاً، وما تعقيب هذا الرجل بعد صدحه بالحق واستنكاره قتل الصالحين بقول "أتقتلون رجل أن يقول ربي الله" إلا دلالة على عرض الحجة عند قول الحق، وبيان الحق الذي هو عليه، والله أعلم.

ومن الدلالات التي تدل على الاعتبار في القصة القرآنية هو التنوع، كما ذكرنا سابقاً، وأن هذا التنوع ليس في الأحداث فقط، بل هناك دلالات أدق وأعمق في ثنايا هذه القصص، ومنه التنوع بين الجنسين في ذكر هذه الدلالات؛ بحيث إننا نجد القصة القرآنية لم تقف عند حدود جنس معين، لبيان أن الاعتبار يجب أن يكون في كل ما يمر بالإنسان من عبر، سواء حدثت هذه العبر مع رجل أو امرأة، وما ذكر قصص بعض الصالحات في القرآن إلا تأكيداً على هذا الأمر، وبياناً لكون العمل لهذا الدين لا يتوقف على نبي أو غيره، ولا على رجل دون امرأة، فكلنا يجب أن نبذل ما بوسعنا بحسب قدرتنا وطاقتنا بل ويجب أن نضحي في سبيل الله، وهذا حال الأنبياء والصالحين من بعدهم.

ولذلك نجد أن القرآن سطر لنا قصص هؤلاء الصالحات وضرب لنا مثلاً بهن في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[التحريم: 11]. فهذه الآية الكريمة فيها من دلالات الاعتبار ما يلي:

1- أن الانسان مهما كان قريباً من الكفر لا يضره ذلك، ولا يؤثر على إيمانه. قال الرازي: هذا فيه بيان للمسلمين أن وصلة الكافرين لا تضرهم كحال امرأة فرعون مع انها زوجة ظالم عدو لله لم يضرها ذلك[1]. فيجب على الانسان المسلم أن يخلص ويصبر على عبادة الله، ويعتبر بثبات امرأة فرعون مع قربها لأهل الكفر مما يجعله دافعاً له على الثبات على دين الله ولا يضره من خالفه أو خذله.
2- أن لا يتأثر الانسان المسلم بمن يحاول أن يصده عن طاعة الله. وأن يبتعد عن المواطن التي ربما تضعف إيمانه، وعن الذين يكون القرب منهم وقوع الإنسان في معصية الله أو تبعده صحبتهم عن طاعة الله. فلذلك ذكر لنا القرآن الكريم هذا الموقف مع المرأة التي من طبيعتها الضعف والخوف، وأن ضعفها وخوفها لم يمنعها من إيمانها، ومع من هذا الضعف وممن كان هذا الخوف؛ إنه من أقوى وأقرب رجل لها، فكانت قوته بالسلطة والحكم، فقد كان ملكاً وكان قربه أن كان زوجاً، ومع هذا كله لم يمنعها ذلك من إيمانها، وأن هذا الإيمان كان سبب لنجاتها

([1]) الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج30، ص574.

منه. قال ابوحيان:(لم يضرها كونها كانت تحت فرعون عدو الله ومدعي الالوهية، بل نجاها إيمانها)[1]. قال سيد قطب: وامرأة فرعون، لم يصدها طوفان الكفر الذي تعيش فيه، عن طلب النجاة، وتبرأها من صلتها بفرعون، كما تبرأت من عمله مخافة أن يلحقها من عمله شيء[2].

3- إن الإسلام ليس فيه تبعية أحد لأحد بل كل نفس تحاسب عن نفسها ونظير هذا الأمر في كتاب الله كثير؛ فقصة إبراهيم مع أبيه وعدم طاعة ابيه في الدخول في دينه كما قال تعالى:(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)[الأنعام:74]. وموقف نوح عليه السلام مع ابنه اذ قال تعالى:(وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (45) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (46) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ)[هود:47]. وموقفه ايضاً مع زوجته فيه دلالة على هذا الأمر[3]، وأنه يجب على الإنسان أن يعتبر أن كل نفس بما كسبت رهينة وأنه لا ينفع الإنسان يوم القيامة إلا أعماله.

4- كما أن فيها دلالة على أن العقيدة والإيمان تحتاج إلى اقتناع العقل دون الضغط الجسدي، لأن الجسد تبعٌ لهذا العقل، فإذا كان الإيمان مستقراً في الداخل فلا يتأثر بالخارج.

فبعد أن ذكر لنا القرآن هذا الإيمان العظيم يذكر لنا في تسلسل عجيب موقف المرأة المؤمنة التقية، وما ينتج عن هذا الإيمان والتقوى من العفة؛ فناسب السياق ذكر قصة أفضل امرأة، حيث قال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾[التحريم: 12]. فذكر قصة مريم عليها السلام فيها عدة دلالات للاعتبار منها:

1- أن الإنسان المسلم يجب عليه أن يكون عفيفاً متقرباً إلى الله بالطاعات؛ لأنها هي التي ترزق الإنسان هذه العفة. ولذلك جاء وصف مريم على عفتها وأحصان فرجها بأنها من القانتين، وقد قال ابن عاشور عن هذا الوصف:(أنها كانت سليلة قومٍ صالحين أي فجاءت على طريقة أصولها في الخير والعفه)[4].

([1]) ابوحيان، **البحر المحيط**، ج10، ص216.
([2]) سيد قطب، **في ظلال القرآن**، ج6، ص3623.
([3]) الشنقيطي، **أضواء البيان**,ج8,ص86.
([4]) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج28، ص378.

2- وكذلك فيها دلالة على قدرة الله وأنه سبحانه قادر على أن يقول للأمر كن فيكون. فكأنها تدعو المعاندين المكذبين بالبعث إلى الاعتبار بأن الذي خلق هذا الجنين وهو ابن مريم من نفخه قادر على أن يبعثه بعد موته، قال ابن عاشور: ولذلك شبه ولادة عيسى عليه السلام ببداية الخلق، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[آل عمران:59][1].

3- إن تصديق مريم لأمر ربها وهو أمر عجيب، دلالة على أن الإيمان بالله يجعل الإنسان يصدق بوعيد الله ووعده وينفذ ما أمر به ويصبر عليه.

ثالثاً: قصص الكافرين المعاندين

إن التنوع القصص في القرآن الكريم يأتي تبعاً لتنوع السياق القرآني، وهذا من أسرار الإعجاز في القرآن الكريم، ومن جميل سبكه ونظمه، وكذلك تبعاً للأحداث والوقائع التي تمر بالنبي صلى الله عليه وسلم فكان يناسب كل حادثة قصة معينة، ولذلك نجد القصة القرآنية لا تذكر جميع تفاصيل القصة، بل تذكر ما تتم به الفائدة من العبرة والاعتبار ومن شواهد القصص التي ذكرت مناسبة للسياق ومواكبة للأحداث هي قصص بعض الكفار، كما في قصة فرعون وقارون مع موسى عليه السلام أو زوجة نوح وزوجة لوط. وهذا التنوع القصصي في ايراد هؤلاء الكفار لا بد أن له دلالة، وهذا ما سأبينه من خلال ذكر دلالات كل قصة على حدة.

فنبدأ بقصة فرعون التي هي من قصص الكافرين التي وردت في مواطن كثيرة من القرآن الكريم، وكذلك لأن الله ابتدأ بها في أول سورة في القرآن بعد الفاتحة، فلو وقفنا عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾[القصص: 4]. نجد أن هذه اللمحة السريعة عن فرعون تحمل من دلالات الاعتبار الشيء الكثير، وهي على النحو الآتي:

1- إن الكبر والتعالي من أسباب الأعراض عن الحق. فوصف العلو لفرعون في الأرض وعدم قبوله للحق كان سببه هذا التعالي والكبر، وهذا ما جاء بيانه أيضاً في قوله تعالى: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ

([1]) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج17، ص138.

الْمُسْرِفِينَ﴾[يونس: 83]. وأن هذا التعالي هو المسبب لهذا الاستكبار الذي يدفع إلى رد الحق وعدم قبوله كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾[يونس: 75]. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ* إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾[المؤمنون: 45 - 46] وقوله تعالى: ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءهُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾[العنكبوت: 39].

فبين سبحانه أن الكبر هو السبب الرئيس في عدم الإيمان بالله وقبول الحق الذي جاءهم. وقد نهي عنه في الدين لأنه من الأسباب التي تصد الإنسان عن قبول الحق. كما ما بين سبحانه أن سبب طرد إبليس وكفره هو تكبره عن السجود لآدم ومعصيته لأمر الله فكان الكبر هو الذي منعه من ذلك كما قال الله تعالى: ﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنْ الْكَافِرِينَ﴾[ص: 74]. ومنه ما رواه معبد بن خالد أنه سمع حارثة بن وهب أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم قال:(أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ),قالوا بلى يا رسول الله قال:(كُلُّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ)[1]. فيجب على الإنسان أن يعتبر من هذا النهي، ويعلم أنه مهما بلغ من العلم والحكم فهو ذليل أمام الله، وأنه ما حصل له هذا إلا بفضل من الله وأن الله قادر على أن يسلبه منه متى شاء.

2- إن الفرقة وعدم اجتماع الكلمة يضعف الأمة. كما فعل فرعون بتفرقته للناس وجعلهم شيعاً وطوائف متفرقة، لكي يستطيع السيطرة عليهم وحكمهم بما يريد، قال الرازي:(جعلهم فرقاً مختلفةً قد أغرى بينهم العداوة ليكونوا له أطواع)[2]. ولكي لا تتفق كلمتهم فيصبحوا اقويا، قال ابو السعود:(جعلهم شيعاً، فرقاً مختلفةً، قد أغرى بينهم العداوة والبغضاء لئلا تتفق كلمتهم)[3]. كما أن هذه التفرقة تعتبر عقاب من الله، يحدث بسببها القتل والحرب والدمار، كما قال تعالى:(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا

([1]) الأمام مسلم، ابي الحسن مسلم بن الحجاج النيسابوري(ت 261)، **صحيح مسلم بشرح النووي**، ط1، 9م، (تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1995م، كتاب الجنة وصفة نعيمها، ج17، ص154.

([2]) الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج24، ص578.

([3]) ابو السعود، **إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم**، ج7، ص2.

وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ)[الأنعام:65]. وهذا فيه دلالة تبين واقعنا هذه الأيام وما نمر به من ضعف، وهو السبب الذي جعلنا مستضعفين بين الأمم، ألا وهو التفرق والتقسيم الحاصل للأمة الإسلامية هذه الأيام مما سهل على أعداءها السيطرة عليها والتحكم بها، ومنعها من القيام بواجبها بمساعدة بعضها البعض، وكأن التاريخ يعيد نفسه مع فرعون مرة أخرى.

فيجب على المسلمين أن يعتبروا بما فعله فرعون وكيف أن هذا الفعل نتج عنه تقتيل واستحياء للنساء وإفساد في الأرض، وكل هذا بسبب التفرق والتشرذم الذي لم يجعل هناك مقاومة لهذا الطاغية، وأن يعملوا على التكاتف ضد أعدائهم والوقوف في طريقهم، ولا يمكن أن يتم ذلك إلا بتوحيد الصف والاجتماع، وهذا ما يحبه الله من المؤمنين في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوص﴾[الصف: 4]. فرصّ الصفوف والاجتماع هو من أسباب النصر والتمكين لهذه الأمة.

3- أن المال من أسباب الغواية. كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيم﴾[يونس: 88]. ففي هذه الآية الكريمة دلالة على أن السلطة والمال من أسباب الغواية وعدم قبول الحق والصد عن سبيل الله، وهذا ما ذهب اليه الطبري عند ذكره للأقوال في لام قوله(ليضلوا عن سبيلك)، حيث قال:(والصواب من القول في ذلك عندي أنها "لام كي"، ومعنى الكلام: ربنا أعطيتهم ما أعطيتهم من زينة الحياة الدنيا والأموال لتفتنهم فيه، ويضلوا عن سبيلك عبادَك، عقوبة منك)[1]. كما أن الأموال كانت أداة يستخدمها الطغاة للصد عن سبيل الله من خلال إنفاقها فيما يرد هذا الحق، أو يصد بها عن الإيمان به، حيث قال تعالى:(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ)[الأنفال:36]. وهو كما بينته قصة فرعون مع السحرة؛ حين وعدهم بأن يعطيهم أمولاً إذا هم استطاعوا أن ينتصروا على موسى عليه السلام كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا

([1]) الطبري، تفسير الطبري، ج15، ص179.

جَاء السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِين * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذاً لَّمِنَ الْمُقَرَّبِين﴾[الشعراء:41 - 42]. فكان طمعهم بأن يعطيهم فرعون من هذه الأموال سبيل إلى محاربتهم للدين والصد عنه، ولولا طمعهم في المال، لما اجتمع كل هؤلاء السحرة للوقوف ضد الحق الذي جاء به موسى؛ فهذه دلالة على دور المال في الصد عن سبيل الله، وأنه يجب على الإنسان أن يعتبر بأن ما عند الله خير وأبقى، وأن كل هذا زائل لا محالة، ويجب عليه الاعتبار باتباع الحق، وليس بالمغريات التي تقدم لصده عنه، وهذا ما عقبت به الآية في قصة فرعون مع السحرة، في قوله تعالى: {وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِين * قَالُواْ آمَنَّا بِربِّ الْعَالَمِين}[الأعراف: 120 - 121]. فهذه الآية فيها بيان أن الإيمان إذا وقر في القلوب لا يمكن لمغريات الدنيا أن تؤثر على هذا الإيمان.

4- إن إتباع الحق يحتاج إلى صبر وتضحية. وعدم الخوف من أي شيء في سبيل هذا الحق، وأن العاقبة للمؤمنين، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلاَفٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِين * قَالُوا لاَ ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُون﴾[الشعراء: 49 - 50]. قال ابوحيان:(قالوا: لا ضير: أي لا ضرر علينا في وقوع ما وعدتنا به من قطع الأيدي والأرجل والتصليب، بل لنا فيه المنفعة التامة بالصبر عليه)[1]. كما أن فيها بيان لعتو الطغاة ومدى تجبرهم.

5- دور البطانة الفاسدة في الصد عن سبيل الله. ومن الدلالات في قصة فرعون التي يجب على الإنسان أن يعتبر بها هي أن البطانة الفاسدة من الأسباب التي تصد عن سبيل الله وتكون عون للظالم على ظلمه، حيث قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَونَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُون﴾[الأعراف: 127]. ففي قصة فرعون واستماعه لبطانته والمقربين منه دلالة على دور الحاشية والبطانة الفاسدة في تأليب الحاكم، وحثه على الظلم، وأكل حقوق الناس والصد عن سبيل الله.

([1]) ابوحيان، **البحر المحيط**، ج8، ص155.

6- على الإنسان أن يتبع الحق ويبحث عنه ولا يغتر بقول احد. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ *إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾[هود: 96 - 97]. فهذه الآية فيها دلالة على وجوب إتباع قول الله وقول نبيه صلى الله عليه وسلم، وأن لا يغتر الانسان بقول احد، مهما تعرض الإنسان إلى مغريات وتزيين للباطل وكثرة القائلين به. ومنه ما ذكره ابوالسعود: إن فيها بيان قبح حال المتبعين لأن فرعون علم من اعلام الفساد والإفساد والضلال، فاتبعه فرط في الجهل وعدم استبصار[1]. ولذلك جاء التعقيب على نهاية هذه التبعية بقوله تعالى:(يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ)[هود:98]. وهذا ما نتعرض له يومياً سواء في الإعلام أو غيره، حيث أصبح بعض الإعلام والإعلاميين أبواقاً فرعونية تبث الغواية وتنشر الفساد من مبدأ قوله تعالى: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾[غافر: 29]. فكأنه لا حق إلا ما يقولون ولا صدق إلا ما ينشرون، فيجب على الإنسان المسلم أن يعتبر ويعمل عقله في الأمور ولا ينجرف خلف الباطل بكثرة القائلين به أو المزينين له.

ومن القصص التي ذكرت في القرآن الكريم، قصة نوح عليه السلام مع زوجته، وقصة لوط عليه السلام مع زوجته أيضاً. وهاتان القصتان فيهما بيان بأن الجحود والكفر والمعاندة ربما يأتي من أقرب الناس، كما بين الله سبحانه وتعالى في قوله: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلاَ النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾[التحريم:10]. فهذه الآية فيها عدة دلالات أهمها:

1- أن الهداية ليست بيد احد وإنما بيد الواحد الأحد سبحانه. فهو يهدي من يشاء ويمن بالإسلام على من يشاء، ولو كان يملك اقوى الاسباب. قال ابن عطية:(أن من كفر لا يغني عنه شيء ولا ينفعه وزر ولو كان متعلقا بأقوى الأسباب، وأن من آمن لا يدفعه دافع عن رضوان الله تعالى

([1]) ابو السعود، **إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم**، ج4، ص239.

ولو كان في أسوأ منشأ وأخسر حال)[1]. وهذا تصديقاً لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللّهُ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيم﴾[إبراهيم: 4]. فهؤلاء مع كونهم رسل الله، لكن لم يستجيب لهم أقرب الناس لهم، فهل منعهم ذلك من مواصلة الدعوة، وهل قرب هؤلاء لهم جعلهم يهتدون؟ لم يحصل ذلك كله؛ لأن الأمر متعلق بالله سبحانه وتعالى، فهو يهدي من يشاء ويضل من يشاء، فكان ضرب المثال بأقرب الناس للأنبياء وعدم إيمانهم بما جاؤوا به دلالة على ذلك، ودافع للاعتبار بأن الإنسان دائماً يسأل الله الهداية إلى الحق والثبات عليه.

2- إن كل الناس سيحاسبون صغيرهم وكبيرهم غنيهم وفقيرهم، وأن الذي يستحق العقاب والعذاب لا يستطيع أحد أن يرده لا بصلة نسب ولا بصلة مصاهرة، ولا غير ذلك. وأن المقياس هو الطاعة لله والدخول في هذا الدين، وما ضرب المثل للكافرين بهاتين المرأتين وأنهن كنا زوجتين لنبيين، إلا لبيان أن العذاب واقعٌ لا يمنعه شيء، إلا الإيمان بالله وحدة لا شريك له. قال الزمخشري:(ضرب الله مثلا حال الكفار في أنهم يعاقبون على كفرهم وعداوتهم للمؤمنين معاقبة مثلهم من غير إبقاء ولا محاباة، ولا ينفعهم مع عداوتهم لهم ما كان بينهم وبينهم من لحمة نسب أو وصلة صهر؛ لأن عداوتهم لهم وكفرهم بالله ورسوله قطع العلائق وبت الوصل، وجعلهم أبعد من الأجانب وأبعد، وإن كان المؤمن الذي يتصل به الكافر نبيا من أنبياء الله بحال امرأة نوح وامرأة لوط) [2].؛ فيجب على الإنسان أن يعتبر من ذلك، وأن يكون دائم التعلق بالله طالباً لرضاه وتاركاً لما سواه، وأن القرب إلى الله لا يكون إلا بذلك.

3- ومن الدلالات في هذه القصة بيان عدل الله وإنصافه. وأن هذا الإنصاف قائم على العمل ليس على ما سواه من نسب أو غيره، وذلك تصديقاً لقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لاَ يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى [فاطر: 18].

([1]) ابن عطية، **المحرر الوجيز**، ج5، ص335.
([2]) الزمخشري، **تفسير الكشاف**، ج4، ص571.

المطلب الثالث: دلالة الاعتبار في قصص القرآن المتحدثة عن غير البشر

إن التنوع القصصي في القرآن كان من أهدافه الرئيسية تنوع صور ودلالات الاعتبار الذي يدفع الإنسان إلى عبادة الله وحده وعدم الإشراك به، فكان هذا التنوع لبيان هذا الأمر وإيصاله للبشرية عامة؛ لكي يؤمنوا بأن الله وحده لا شريك له، ويمتثلوا عبادته، وهذا الهدف الذي من أجله أرسل الله الرسل وأنزل الكتب.

ولو أردت أن اقف عند كل القصص القرآني الذي تناول غير البشر لم يسعني الوقت، ولطال بي المقام، وذلك للتنوع الذي جاءت فيه هذه القصص؛ ومن هذه القصص قصة بقرة بني إسرائيل حيث قال تعالى:(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (67) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (68) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (69) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (70) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (71)) [البقرة:71]. وهذه القصة فيها عدة دلالات هي:

1- التمحيص للمؤمنين ليميز الله الخبيث من الطيب كما قال تعالى: ﴿ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾[آل عمران: 154]. فكان طلب الله من بني إسرائيل على لسان موسى عليه السلام أن يذبحوا بقرة، دون غيرها من الحيوانات، فيه تمحيصاً لهم، وابتلاءً لإيمانهم، حيث أنهم كانوا يقدسونها، قال الماوردي:(وإنما أمروا والله اعلم بذبح البقرة دون غيرها، لنها من جنس ما عبدوه من العجل، ليهون عندهم ما كانوا يرونه من تعظيمه، وليعلم بإجابتهم زوال ما كان في نفوسهم من عبادته)[1].

2- فيها دلالة على أن ما يأتي به الأنبياء من تشريع ليس فيه هزؤ أو لعب؛ قال

([1]) الماوردي، **تفسير الماوردي النكت والعيون**، ج1، ص137.

الطبري:(لأنه لا ينبغي أن يكون من أنبياء الله فيما أخبرت عن الله من أمر أو نهي هزؤ أو لعب)[1]. ولذا تبرأ منه موسى عليه السلام بأنه نفى أن يكون من الجاهلين بل بالغ في النفي بالتنزه بقوله أعوذ بالله أي منه[2]، بل يجب الوقوف عنده والعمل به، لا كما فعل اليهود في مماطلتهم بطلب أوصاف تلك البقرة.

3- عدم التنطع والمماطلة في أوامر الله. ويجب على الإنسان الاعتبار من ذلك بأن يسمع ويطيع دون مماطلة وتلكئ، لأن عدم انصياعهم للذبح مباشرةً وسؤالهم جعل الأمور تزداد صعوبةً، فلو نفذوا مباشرةً لما زادت الأوصاف التي قال الله عنها: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾[البقرة: 71].

4- فهم التشريع وإرشاداً للناس إلى الأخذ بأيسر الأمور وأسهلها وعدم التكلف والتعنت؛ لأن دين الله سهل ميسر. والأخذ بالأوصاف المؤثرة في التشريع، دون الأخذ بالأوصاف الطردية[3]. فيجب على الإنسان الاعتبار وبذل الأسباب والعمل حتى تحصل النتيجة، ونظير ذلك في كتاب قوله تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾[التوبة:105]. وقد حثنا الى ذلك القرآن الكريم في عدة مواطن لبيان أن العمل هو الذي يأتي بالثمرات وتحصل به الأمنيات، فلا يمكن أن ينال الإنسان ما يتمنى دون أن يعمل، وهذا ما بينته القصة في قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[البقرة: 73].

وكذلك في هذه السورة ما يستدعينا إلى الاستشهاد بقصة حيوان آخر كان سبباً في بيان قدرة الله في كيفية إحياء الموتى، كما حصل مع سيدنا إبراهيم عليه السلام عندما طلب من الله أنه يريه كيف يحيي الموتى، حيث قال تعالى:(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)[البقرة:260]. وهذا أيضاً من التنوع

([1]) الطبري، **تفسير الطبري**، ج2، ص182.
([2]) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج1، ص548.
([3]) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج1، ص547-556.

القصصي في القرآن؛ لأن الله أورد لنا بعض قصص غير البشر كما أورد لنا قصص البشر، ومنها قصص الطير، ودورها في اعتبار الناس كما في قصة سيدنا سليمان عليه السلام مع الهدهد، حيث قال تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لاَ أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾[النمل: 20]. فهذه القصة فيها عدة دلالات تدعو الى الاعتبار هي:

1- أن هذا التفقد فيه دلالة على أن من ولي أمر الناس عليه أن يتفقدهم ويتلمس حاجاتهم؛ لأنها من الواجبات على الوالي تجاه رعيته[1]، لكن هذا التفقد وهذه المتابعة المستمرة من سليمان عليه السلام لم تجدِ نفعاً أمام أقدار الله التي جعلت هذا الطائر الصغير يذهب دون علم نبي الله عليه السلام مع ما أوتي من ملك وتسخير.
2- فيه دلالة على أن علم البشر محدود مهما بلغوا، وأنه لا يعلم الغيب إلا الله؛ فهو سبحانه الذي يعلم ما كان ويكون وما سيكون. فيجب على الانسان الاعتبار بأن علم الله احاط بكل شيء. قال تعالى:(أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ)[التوبة:78].
3- أهمية العلم ومكانة حامله وإلا لما تجرأ الهدهد على الغياب دون علم سليمان عليه السلام. ولذلك قيل في قول الهدهد في قوله تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾[النمل: 22]: فكان في هذا ابتلاء لسليمان عليه السلام في علمه، وتنبيه له بأن أضعف هذه المخلوقات التي عنده أحاط بما لم يحط هو به، لتتحاقر له نفسه ويتصاغر إليه علمه، ويكون لطف له في ترك الإعجاب الذي هو آفة وفتنة العلماء[2]. كما جعل علم الخضر مثالاً لموسى عليه السلام تنبيه لعدم الاغتراب بانتهاء الأمر إلى ما بلغه[3]، ومنه أيضا تعليم آدم للملائكة.
4- فيه دلالة على أن الله يكره الغرور من خلقه، ولذلك يأتي بآية تميز الأدنى من الأعلى، وأن كل ما وصل إليه الإنسان ليس بقدراته، بل بقدرة الله وحده[4].
5- العدل. إن في هذه القصة دلالة على صفة عظيمة يجب أن يتحلى بها كل من يتولى أمر من أمور الناس، وهي العدل؛ حيث قال تعالى في القصة على لسان سليمان عليه السلام: ﴿لأُعَذِّبَنَّهُ

([1]) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**,ج19,ص245.
([2]) الزمخشري، **تفسير الكشاف**,ج3,ص364.
([3]) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج19، ص249.
([4]) الشعراوي، **تفسير الشعراوي**، ج1، ص244.

عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾[النمل: 21]. قال ابن عاشور: والزيادة في طلب السلطان استقصاء في حقه لأن الغائب حجته معه، فجعل هذه الحجة هي عديل العقوب وأن لا يدرئها عنه الا هذه الحجه[1]. فهذا فيه بيان لعدل سليمان عليه السلام، ودلالة على أن من يتولى أي أمر من أمورهم، فإن عليه أن لا يحكم فيهم دون أن يعرف حجتهم، وأن لا يأخذهم بكلام غيرهم؛ وهذا من باب العدل والإنصاف، وبما أن هذا الملك الذي حدثت معه هذه القصة نبي كان أولى الناس بهذا العدل.

ومما حسن ذكره في هذه الدلالة، العذر الذي كان ينتظره سليمان عليه السلام، حيث كان له مقدمات تتجلى بها روعة القرآن الكريم، وجمال نظمه؛ حيث إن الهدهد لم يذكر العذر مباشرة، بل أتى بمثير قبله ومحفز إلى الاهتمام به؛ مما يؤكد على أهمية ما سيأتي بعده، وهو قوله تعالى على لسان الهدهد: ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾[النمل: 22]. فكان هذا التحدي دلالة على أهمية هذه الإحاطة. ومما زاد في إثارة هذه الأهمية أنه بدأ بذكر مقدمات لهذا الأمر؛ وهي روعة المكان وجماله وتعجبه منه، وكل هذا فيه دلالةٌ على أهمية ما سيأتي من بعده، وتشويقٌ لسماع ما عنده، وتنبيهٌ للسامع لما سيأتي من خبر؛ حيث قال تعالى على لسانه: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾[النمل: 23]. فكانت هذه المقدمة تهيئة للأمر الذي جاء به، و من أجله أوردت هذه القصة، ومن أجله تنوعت العبرة؛ إنها الدعوة إلى عبادة الله وحدة لا شريك له، وهذا الذي أثار انتباه هذا الطائر الصغير، فنقل هذا الأمر إلى سليمان عليه السلام على الفور، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ﴾[النمل:24].

6- الحرص على دعوة الناس إلى عبادة الله وحدة واتباع نهجه. فإذا كان هذا هو هم الطائر الصغير؛ فلماذا لا نجعل هذا الهم يعيش معنا، وأن نجعل حياتنا كلها لأجل الله سبحانه وتعالى؛

([1]) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج19، ص247.

لأن هذه الحياة يجب أن تكون كلها لله، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: 162].

7- ومن الدلالات التي يجب أن نقف عندها كثيراً ونتأملها دائماً: عدم احتقار المعروف مهما كان صغيراً؛ فهذا الهدهد الطائر الصغير كان سبب في دخول أمةٍ في عبادة الله؛ لأن هذا هو منهج الأنبياء، وهو ما دلت عليه هذه القصة التي بينت حرصهم على تبليغ أمر الله، ولذلك ختم الهدهد اعتذاره من الغياب في أهم شيء، وهو عدم عبادة القوم الذين أتاهم الله سبحانه وتعالى، ولولا علمه بهذا الحرص لما أتى بكل هذه المقدمات لإخباره بهذا الأمر. فكان اعتذاره يحمل أمرين عظيمين: الأول: إخباره بأمر لا يعلمه عن مملكة أخرى، والثاني: إخباره عن عبادة هذه المملكة لغير الله فكان له في هذا الأمر حجة عند سليمان عليه السلام[1].

فهذه الدلالات التي وردت في قصة الهدهد وغيره من قصص غير البشر في القرآن، دالة على أن القرآن الكريم فيه من التنوع ما يدفع الإنسان إلى التأمل بهذا التنوع؛ ليستنبط العبر التي تنوعت بحسب التنوع القصصي، وكل هذا لأجل أن يتم الاعتبار بها، الذي من أجله سيقت كل هذه القصص.

([1]) الطبري، **تفسير الطبري**، ج19، ص446.

المبحث الثاني

دلالات الاعتبار في سياق آيات القتال

إننا عندما نسمع كلمةً أو موضوع يتعلق بالقتال يتبادر إلى الأذهان أن الموضوع يتكلم عن إزهاق الأنفس أو الموت، لكن عندما تكون هذه الكلمة مذكورة ضمن سياقات قرآنية؛ فإن دلالة هذه الكلمة لا يحتمل ذلك المعنى الظاهر للقتال، وهو الموت، بل تكون هذه الدلالة أشمل وأعم؛ حيث إنك تجد القتال في بعض مواطن القرآن يدل على الحياة أو المحافظة على الممتلكات، كما أنه يدل على بذل الجهد في نصرة هذا الدين؛ ولذلك سمي جهاداً، والقتلى الذين ينتجون عنه سموا شهداء، بل إن الأمر تعدى بأن أصبح هذا القتال فيه من الخير ما ينزع كراهيته من النفوس، حيث إننا حين ننظر إليه في بادئ الأمر؛ نعتقد أنه لا يحمل إلا القتل والدمار على من يحل بهم، ولكن عندما ندقق النظر في العواقب وفي الأهداف لهذا القتال؛ نجد أنه شرع لنشر الخير والدين وحفظ الحقوق والحياة الكريمة، سواء في الدنيا أو الحياة الأبدية في الآخرة، ولذلك دائماً نجد القتال في القرآن يرتبط بعبارة (في سبيل الله)؛ أي: أن هذا القتال يجب أن يكون على ما يريده الله وحده، لا على ما نريده نحن.

وهذه العبارة هي التي تميزه عن بقية الصراعات التي لا تكون على هذا السبيل؛ لأنه لا يمكن أن يكون إلا سبيل رشاد يحقق الخيرية لكل الناس، وما النهي عن قتل الأطفال والنساء ومن يعاهدون إلا من هذا السبيل القويم، كما بُين لنا ذلك في مواطن عدة من القرآن الكريم، وهذا ما نحاول في هذا المبحث أن نبينه من خلال مفهوم القتال والمعاني التي دلت عليه، أو من خلال الدلالات التي حملها هذا المفهوم من خلال السياقات القرآنية التي جاء فيها.

المطلب الأول: مفهوم القتال

إن القتال ورد في القران الكريم بسياقات عديدة، وموضوعات مختلفة، ولكي نستطيع بيان دلالات القتال التي وردت في هذه السياقات؛ فإنه لا بد من بيان مفهوم القتال من خلال المعاني التي حملها هذا المفهوم، فالقتال في الأصل مأخوذ من القتل؛ قال ابن فارس:(القاف والتاء واللام أصل صحيح يدل على إذلال وإماته)[1]، وكل المعاني لا تخرج عن هذا الأصل وهي على النحو الآتي:

1- الموت: حيث إن هذا المعنى هو المعروف السائد للقتل، وهو الإماتة إما بضرب أو جرح ولذلك يقال: المنية قاتلة[2]. قال ابن فارس: قَتَلَهُ قتلاً، والقِتلةُ هي الحال التي يقتل بها يقال قَتَلَه قِتلة سوءٍ، والقتلة تعني أيضاً المرة الواحدة ولذلك يقال: مقاتل الإنسان؛ أي الأماكن التي أذا أصيبت قتلت[3]. وذكر الجوهري: أنه من استقتل فلاناً أو استمات؛ أي: عرَّض نفسه للموت لأمرٍ يريده أو يحاول الحصول عليه[4]. ومن المعاني التي تدل على الموت ويقال لها قتل أيضاً: الذبح، ولكن معنى الذبح مقيد بحالةٍ معينةٍ للقتل، أما القتل فيطلق بشكل عام على أي حالةٍ للمقتول؛ كقولك للمرجوم: مقتول، والمخنوق يقال له: مقتول، وكذلك المصبور يقال له: مقتول ومن سقط في بئر يقال: قتيل، ولذلك سمى القرآن الوأد قتلاً من الحالة التي كانت سبب في الموت، حيث قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَت * بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَت﴾[التكوير:8 - 9]

2- المحاربة: وقد جاء معنى القتال بالمحاربة أو الحرب، ولا يكون هذا المعنى إلا بين اثنين؛ لأن قولك: قاتل فلان فلاناً؛ فإنه لا يكون إلا بين اثنين، ولذلك يقال للأعداء: أقتال، ومفردها: قِتل؛ أي: عدو[5]. وهو من المقَاتَلة. وقولك: تقاتل القوم واقتتلوا وتَقَتّلوا وقتّلوا وقِتّلوا؛ كلها تعني المحاربة أيضاً، وكذلك قول: قاتله قِتّالاً وقِيتالاً؛ وهو من كلام العرب، ومنه: المقاتل، كما قال كعب بن مالك:

أقاتل حتى لا أرى لي مُقاتلاً وأنجو إذا عُمَّ الجبان من الكرب

ولذلك يقال للمحارب: المقاتِل، والمقاتِلة بكسر التاء هم الذين يَلُون القتال؛ أي: يأتون بعد المقدمة[6]. وقيل: هم الذين يصلحون للقتال[7].

([1]) ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، ج5، ص56.
([2]) الفراهيدي، **العين**، ج5، ص127.
([3]) ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، ج5، ص56.
([4]) الجوهري، **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**، ج5، ص1797.
([5]) الازهري، **تهذيب اللغة**، ج9، ص62.
([6]) ابن منظور، **لسان العرب**، ج5، ص3527.
([7]) الجوهري، **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**، ج5، ص1797.

3- الإذلال: جاء القتل بمعنى الإذلال أو التذلل؛ أي: التمرن على العمل؛ كقولك: فلان مُقتّل ومضرّس؛ بمعنى: معود، ومضرّس وتعني: مرن على العمل؛ ولذلك يقال لمن جرب الأمور كلها: المُقتّل[1]. ومنه دابة مقتّلة؛ أي: مذللة قد مرنت على العمل؛ كقولك: ناقة مقتّلة؛ أي: مذللة، ولذلك يقال للمرأة: تقتلت به؛ أي: تخضعت له وتذللت حتى عشقها[2]. ورجل مقتّل؛ أي: مذلل قتله العشق، وقلب مقتّل قيل عشقاً، وقيل مذلل بالحب كما قال امرئ القيس في معلقته:

وَمَا ذَرَفَت عَينَاكَ إلّا لِتَضرِبِي بِسَهمَيكِ فِي أعشَارِ قلبٍ مُقَتَّلِ

ومنه يقال للرجل المكدود بالعمل المذلل: رجل مقتّل، كما يقال: جمل مقتّل؛ أي: ذلول[3].

4- اللعن: جاء القتل بمعنى اللعن، وهذا غالباً ما يرد في القرآن الكريم، بل هناك من قال: إن كل قتل جاء في القرآن يراد به اللعن للكفار[4]، كما في قوله تعالى: ﴿قَاتَلَهُمُ اللّهُ أَنَّى يُؤْفَكُون﴾[التوبة: 30] أي: لعنهم الله، ولكن هذا القتال ليس الذي هو بمعنى المقاتلة والمحاربة بين اثنين؛ لأن (قاتل الله)؛ أي: لعن من واحدٍ أما اذا قلت قاتل فلان فلاناً فأنها من اثنين، ونقل عن الفراء قوله: في قوله تعالى: ﴿قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَه﴾[عبس: 17]. معناها لعن الإنسان، كقولك: قاتله الله؛ تريد بها: لعنه الله، ويقال أيضاً: قاتل الله فلاناً؛ أي: لعنه الله[5].

فهذا جل ما ذكر عن معنى القتال عند أهل اللغة.

وقبل أن اذكر ما تبين لي من خلال هذه المعاني، أود أن اذكر صفة للقتال كثيراً ما ترد في كتب التفسير، ألا وهو الجهاد فوجدت كثير من المفسرين عندما يتحدثون عن القتال يصفونه بالجهاد وهذه الصفة لم أذكرها ضمن معاني القتال فيما سبق، والسبب أنه هناك فرق بين القتال الجهاد؛ وهو أن القتال يحمل من المعاني ما ذكر آنفاً، أما الجهاد فيراد به بذل الجهد في سبيل الله سواء بالكلمة أو بالمال أو بالعبادة أو بالعمل؛ فيدخل تحته أو من ضمنه القتال، وهذا ما جعل أغلب المفسرين يصفونه بالجهاد، أما القتال فقد ذكر في القرآن بنفس اللفظ مما يدل على قصد هذه اللفظ، وهذا الفعل دون غيره من الأفعال في المواطن التي ذكر فيها، مما يجعله يحمل دلالات غير التي يحملها الجهاد. ومما يؤكد هذا الفرق أنه تبين لي أن القتال يحمل معنى عاماً يراد به الإنهاء أو النهاية؛ لأن

([1]) الازهري، **تهذيب اللغة**، ج9، ص62.
([2]) الزمخشري، **أساس البلاغة**، ج2، ص52.
([3]) ابن منظور، **لسان العرب**، ج5، ص3528.
([4]) ابو البقاء، **كتاب الكليات**، ج1، ص729.
([5]) ابن منظور، **لسان العرب**، ج5، ص3527.

الموت يعدُّ نهاية الإنسان، وكذلك المقاتلة ؛فهي عندما تحدث بين طرفين لابد أن تنهي ما بينهما من أسباب الخلاف؛ إما بموت أحدهما أو بصلح بينهما أو بنزول أحد المتقاتلين عند رغبة الآخر. كما هو معنى الإذلال؛ فإنه عندما تذلل شيئاً ما، فأنت أنهيت أمره بأن جعلته يتعود على ما تريد منه، ولذلك سمي مقتّل. وأيضاً اللعن؛ فإنه يفيد أن نهاية هؤلاء الملعونين من الله هو طردهم وأبعادهم من رحمة الله.

المطلب الثاني: دلالة الاعتبار في سياق الحث على القتال

إن القرآن الكريم عندما تحدث عن القتال حمل بين طياته الكثير من الحث عليه والمبادرة إليه، سواءً بشكل مباشر أو بما يدل عليه من ألفاظ أخرى، مثل النفر أو الحرب. فكان هناك تنوع في الخطاب القرآني في هذا الجانب؛ دلالةً على أن هناك عبراً ومواعظ من هذا الحث، لكي يتم الاعتبار بدلالات هذه العبر من خلال المواضيع التي حث فيها القرآن على القتال. وفي هذا المبحث نحاول استقصاء مواطن الحث على القتال وبيان دلالات الاعتبار فيها.

ولكن قبل أخذ هذه المواطن؛ فإنه لا بد من معرفة بداية تشريع القتال، والدلالة عليه من خلال هذه التشريع، فنجد أن القتال لم يشرع في السور المكية، وكان أول ما شرع بالسور المدنية، وهذا في دلالة عظيمة يجب أن نعتبر بها، وهي رسالة إلى كل مسلم أمر بالدعوة إلى الله، وهي أن القتال لم يشرع لمجرد القتل وإزهاق الأنفس بلا طائل، بل يكون إزهاق النفس والمقاتلة لأمر عظيم؛ وهو إعلاء كلمة الله ونصرة دينه، وهذا هو النهج الرباني الذي من أجله شرع القتال.

ومما يدلل على ذلك أنه لم يطلب من النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يشرع في العهد المكي؛ لأنهم كانوا في ذلك الوقت وفي بداية الدعوة كانوا قلة، فلو شرع القتال لأزهقت أنفسهم وانتهت دعوتهم بموتهم، ولضاع الحق الذي هدوا إليه وكلفوا إقامته والدعوة إليه[1]، بل لم يشرع لهم وهم في أحلك الظروف عندما حبسوا في شعب بني طالب، وفي تلك الفترة التي كانت أشد الأوقات تعذيباً وتهجيراً، لأن الهدف الرئيسي في ذلك الوقت إقامة الدعوة والمحافظة عليها ولا يكون ذلك إلا بالمحافظة على الأنفس. وهذا فيه دلالة على أن الدعوة إلى الله لا يمكن لها الانتشار والمواصلة دون المحافظة على الداعي.

ومما يؤكد هذه الدلالة أن القتال حتى عندما شرع في العهد النبوي، لم يكن الهدف منه الإماتة وإزهاق الأنفس، ولذلك وصفه الله بالخير، كما في قولة تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة: 216]

لأن في تشريعه خيراً سيعم الدولة الإسلامية من خلال المحافظة عليها وعلى الدين الذي قامت من أجله، من خلال صد المتربصين بالدولة الإسلامية؛ لأن هدف المشركين من مقاتلة المسلمين هو رد المسلمين عن دينهم، كما قال تعالى: ﴿وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ ﴾[البقرة:

([1]) رشيد، محمد رشيد بن علي رضا(ت 1354هـ)، **تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)**، 12م، الهيئة المصرية العامة للكتاب ,1990م، ج2، ص249.

217]. وهذا الذي لا يمكنهم فعله؛ لأن الله تكفل بحفظ دينه، كما أن هذه الدلالة هي التي تبدد الغمة عن الذين يتساءلون عن سبب ما يتعرض له المسلمون في هذا الوقت من قتل وتشريد واضطهاد، لكن لا ضير فإن العاقبة لهم؛ إما بالنصر في الدنيا، وإما بالشهادة التي ترفع درجاتهم في الآخرة، فيجب الاعتبار بأن الحرب لا تستهدف أشخاصاً أو بلداناً، بل تستهدف عقيدة يجب أن يحافظوا عليها ويتمسكوا بها ويدعوا الناس إليها.

وقد حدد الشوكاني هذا الخير بالظفر والغنائم والأجر، ومن يقتل ينال الشهادة التي هي أعظم شيء وعد به المقاتل في سبيل الله[1]. ولكن حصر هذه الخيرية بما سبق لا يراه الباحث؛ لأن القرآن الكريم جعل هذه الخير مطلقاً وغير معرفاً؛ لعموم الخير في تشريعه، وهذا ما يناسبه، لأن الناس لا يعلمون من أمر العواقب التي وراء حجب القدر شيء، ولكن الله وحده هو من يعلم ذلك، ولذلك كان التعقيب في نهاية الآية بقوله تعالى: (والله يعلم وانتم لا تعلمون)؛ لأن الانتقال من كرهٍ إلى خيرٍ يفتح للنفس البشرية عالماً آخر غير العالم المحدود، وتترتب العواقب على غير ما كان يظنه أو يتمناه[2]، ولذلك نجد القرآن قبل أن يذكر القتال قدم له بالعواقب التي تنتج عنه، فذكر فضل الشهداء، وأنهم أحياء عند ربهم يرزقون، كما في قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاء وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ﴾[البقرة: 154]. فهذه الآية جاءت قبل التشريع للقتال؛ لبيان فضل من يقتل في سبيل الله على العموم، سواء في أرض المعركة أو في غيرها، ثم جاء بعد ذلك الأمر في القتال بنفس السورة، حيث قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾[البقرة: 193].

ومما سبق في هاتين الآيتين هناك عدة دلالات للاعتبار هي:

1- فضل من يقتل في سبيل الله وأنه شهيد يرزق عند الله سبحانه وتعالى. كما بين ذلك سبحانه في قوله تعالى:(وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ)[آل عمران:169]. قال البقاعي:(وبين زيادة شرفهم معبراً عن تقربهم بقوله: {عند ربهم} أي المحسن إليهم في كل حال، فكيف في حال قتلهم فيه حياة ليست كالحياة الدنيوية! فحقق حياتهم بقوله {يرزقون } أي رزقاً يليق بحياتهم)[3].

([1]) الشوكاني، محمد بن علي بن محمد(ت 1250هـ)، **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**، 5م، دار الفكر، بيروت، ج1، ص216.

([2]) قطب، **في ظلال القرآن**، ج1، ص223.

([3]) البقاعي، **نظم الدرر**، ج5، ص121.

2- أن فيه منعاً لفتنة الناس في دينهم، ودحراً للشرك وأهله. حيث بين الطبري: أن المراد بقول الله حتى لا تكون فتنه أي حتى لا يكون اشراك بالله، ولكي تضمحل عبادة غيرة من الأصنام والأوثان وتكون العبادة لله وحده[1]، وأي فتنة أكبر من نشر هذا الكفر بين الناس، ولذلك جعلت الفتنة أشد من القتل؛ لأن القتل محدود الضرر، أما الفتنة فمتعدية إلى الغير، ونشر الشرك أكبر ضرر من القتل، ولذلك قيل: إن هذا النص القرآني عام الدلالة مستمر التوجيه بأن الجهاد ماضٍ إلى قيام الساعة لصدِّ أيِّ قوةٍ تحاول فتن الناس في دينهم ومنعهم من عبادة ربهم[2]. ولذلك قيل: أتى في الخطاب حث على المقاتلة لصد ومنع أي طرف يريد قتالهم وفتنة الناس في دينهم حيث لم يقل سبحانه وتعالى: أقتلوهم بل قال: قاتلوهم؛ أي: مواجهة فيها مفاعلة للقتال، ومعنى هذا أن هناك قتالاً يؤدي إلى قتال، وبعدم هذه المقاتلة للكفار ينتج عنه فتنة للناس في دينهم[3].

3- الحث على الاستعداد للقتال لأجل المحافظة على دين الله، وأن لا يفتن الناس في دينهم، ويجب الاعتبار من ذلك على بذل الأنفس في سبيل نصرة دين الله وصد أعدائه، لكي لا يفتن الناس في دينهم.

4- إن هذا الحث فيه حفاظ على العباد والبلاد وجلب السلم، لا كما يعتقد كثيرٌ من الناس أنه مهلك؛ لأنه في سبيل الله، ولا يحث الله على شيءٍ فيه ضرر، بل هذا الحث فيه محافظةٌ على الأنفس من خلال كف أذاهم؛ إما بمسالمة الأعداء لهم، وإما بخوفهم من محاربتهم وهذا من الدلالات في الحث على القتال، كما قال تعالى: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلا﴾[النساء: 84]. فنجد أن في هذا الحث كفّاً للأذى وحفظاً للمؤمنين ورداً لبأس الكافرين؛ وهذا كله فيه دلالة على أن هذا الحث فيه حياة لهم؛ من خلال رد هذا البأس عنهم، فلم يكن القتال للقتل بل للإحياء، كما قال تعالى في آية القصاص: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[البقرة: 179]. فكان هذا القتل للجاني أو المقتص منه حياةً للباقين من خلال ردع القتلة أو من يفكرون بهذا الفعل، خوفاً من تطبيق القصاص عليهم.

([1]) الطبري، **تفسير الطبري**، ج3، ص570.
([2]) قطب، **في ظلال القرآن**، ج1، ص190.
([3]) الشعراوي، **تفسير الشعراوي**، ج8، ص4701.

5- إن هذا الحث فيه تجهيز وتهيئه للانسان المسلم على القتال. قال سيد قطب:(لقد كان القرآن يخوض المعركة بالجماعة المسلمة في ميادين كثيرة. وكان أولها ميدان النفس ضد الهواجس والوساوس وسوء التصور ورواسب الجاهلية، والضعف البشري حتى ولو لم يكن صادراً عن نفاق أو انحراف. وكان يسوسها بمنهجه الرباني لتصل إلى مرتبة القوة، ثم إلى مرتبة التناسق في الصف المسلم)[1]. فيجب الاعتبار من ذلك بأننا أذا أردنا النصر، يجب أن نتجهز نفسياً للقتال قبل التجهيز المادي.

6- إن السلم لا يأتي إلا بالإعداد للقتال والحث عليه، كما أن فيه ردع للكافرين وتخويف لهم. لأن العدو إذا علم بترك المسلمين للجهاد والإعداد له، قصد بلادهم واستباح دماءهم وأموالهم، فيكون كمن ترك مداواة المرض في بدايته نفرةً من مرارة الدواء حتى استفحل عليه ويكون المرء محتاجاً إلى تحمل أضعاف ذلك الدواء[2]. ولذلك نجد أنه سبحانه وتعالى قدم للسلم أو مسالمة الأعداء بالإعداد للقتال والتهيؤ له، حيث قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾[الأنفال: 60] ثم في الآية التي بعدها مباشره قال تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيم﴾[الأنفال: 61]. ولم ينتهي الأمر عند هذا الحد بل عقب على هذا الإعداد الذي يرغم الكفار على المسالمة بالتحريض على القتال بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾[الأنفال: 65]. فهذه دلالة على أن السلم لا يأتي إلا من خلال تخويف الأعداء بإعداد العدة للقتال، ولا يكون هذا الإعداد إلا بالحث المسبق عليه والتحريض على التجهز لملاقاة العدو ولذلك جعل السلم بين تحريضين على القتال: الأول: الإعداد له، والثاني: على القيام به وتنبيهاً لهم على عدم الركون لهذه المسالمة، وأنهم يجب أن يكونوا على أهبة الاستعداد حفاظاً على دينهم أولاً، ثم أرواحهم وممتلكاتهم.

فمن خلال كل ما سبق، وكل هذا الحشد من الآيات للحث على القتال، يتبين أنه لتحقيق الخير الذي أوجبه الله سبحانه وتعالى في بداية تشريعه للقتال، قال عنه سيد قطب:(إنها الوصية للذين آمنوا من القيادة العليا التي ترسم لهم المنهج وتبين لهم الطريق)[3].

([1]) قطب، **في ظلال القرآن**، ج2، ص704.
([2]) الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج6، ص384.
([3]) قطب، **في ظلال القرآن**,ج2,ص704.

المطلب الثالث: دلالة الاعتبار في سياق المواجهة للقتال

بعد أن ذكرنا ما يتعلق في الحث على القتال والاستعداد له من دلالاتٍ حري بنا الاعتبار بها. فإن ذكر المواجهة المباشرة مع الكفار وقتالهم، من خلال ما ذكره القرآن لنا فيه دلالات يجب الاعتبار بها. ومن هذه الدلالات:

1- إن النصر لا يمكن أن يكون إلا من عند الله، مهما كان ما يحمله الجيش من عدة وعتاد. فإذا لم يؤيد هذا الاستعداد بالنصر من عند الله، لا يمكن أن يتم بأي حال من الأحوال، ومما يؤكد ذلك أن الله سبحانه وتعالى عندما ضرب لنا مثلا بالذين قاتلوا في سبيل الله قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم كما في قصة طالوت وجنوده حيث قال تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[البقرة: 249]. فهذا كان تأكيداً للصف المسلم وشحذ من الله لهم على الإقدام لمواجهة الأعداء ومناجزتهم مهما كانت الفوارق وإعلاماً لهم بأنه سبحانه بيده النصر والظفر والخير والشر[1]. كما أن العبرة ليست بالعدد ولا بالعدة، إنما العبرة في التأييد الإلهي والنصر السماوي[2]. كما أنه لا يمكن أن يؤمن بذلك إلا من امتلاء قلبه إيماناً بالله سبحانه وتعالى، ولذلك توجهوا بعد هذا الإيمان إلى من آمنوا به بأنه هو ناصرهم كما قال تعالى على لسانهم: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[البقرة: 250]. فنتج عنه النصر مع الزيادة في التأكيد على ذلك بقوله: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللّهِ﴾[البقرة: 251]. ونلاحظ أن العطف جاء بالفاء لسرعة نصر الله لهم؛ لأن طلبهم كان من الله لمعرفتهم أن النصر بيد الله وحدة، فالتعامل مع وعد الله الظاهر للقلوب أصدق من التعامل مع الواقع الصغير الظاهر للعيون[3]. أما غيرهم من المنافقين والكافرين فكان التأكيد لهم بشيء مشاهد أمام أعينهم، حيث قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاء إِنَّ فِي ذَلِكَ

([1]) الطبري، **تفسير الطبري**,ج5,ص360.
([2]) الرازي، **مفاتيح الغيب**,ج6,ص505.
([3]) قطب، **في ظلال القرآن**,ج1,ص263.

لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي الأَبصَارِ﴾[آل عمران: 13]. قال الألوسي:(الْأَبْصار جمع بصر بمعنى بصيرة مجازا أو بمعناه المعروف أي لذوي العقول والبصائر أو لمن أبصرهم ورآهم بعيني رأسه)[1]. وذكر رشيد رضا: بأن المقصود اصحاب الابصار الصحيحة التي خلقت للتأمل والاستفادة مما تشاهد[2]. ولذلك جعل سبحانه الاعتبار لأولي الأبصار لأنه شيء يرونه أمام أعينهم ليس شيء يفكرون به بحيث أن هذا الأمر مشاهد محسوس بالنظر بالعين فمن كان لديه بصيرة يعتبر ويؤمن بالله، ولذلك لم يقل سبحانه وتعالى لأولي الأعيُن؛ لأن النظر إذا كان بمجرد النظر دون التبصر، لا يفيد بأخذ العبر، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَسْمَعُواْ وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُون﴾[الأعراف: 198].

2- عدم الخوف من الموت عند المواجهة فهو حاصل، ولو لم تقاتلوا، ولذلك قدم له بقصة الذين خرجوا من ديارهم حذر الموت بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُون *وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيم﴾[البقرة: 243- 244]. فيقاتل وهو متيقن أن القتال ليس هو الذي يميت، بل إن الله هو الذي يقبض الأرواح، وإن نفس المؤمن التي بين جنبيه لها أجل مقدر فهذا دافعٌ إلى الأقدام وتنفيذ أمر الله بأيمانٍ راسخ. قال ابن عاشور:(إن هذه الآية استئناف ابتدائي للتحريض على القتال والجهاد في سبيل الله، وتذكيرٌ بأن الحذر لا يؤخر الأجل)[3]. وبين الرازي: إن هذه الآية تشجيع لهم بإعلامهم بأن الإماتة والإحياء بيد الله، حث لهم على الإقدام وعدم ترك الجهاد أو التحصن خوفاً من الموت[4].

كما أن ذكر القصص بعد الأحكام؛ فإن ذلك يحمل على الاعتبار وترك التمرد والعناد، ومزيد من الخضوع والانقياد[5]. وليؤكد سبحانه وتعالى على هذه الدلالة ذكر حال المنافقين عندما بدؤوا

([1]) الألوسي، **روح المعاني**، ج2، ص95.
([2]) رشيد رضا، **المنار**، ج3، ص193.
([3]) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج2، ص475.
([4]) الطبري، **تفسير الطبري**. ج5، ص266.
([5]) الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج6، ص495.

بمعاتبة أنفسهم، وأنهم قد أتوا إلى حتفهم وساروا إلى الموت بأرجلهم، بقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾[آل عمران: 154]. فهنا تأكيد على أنه ليس هناك مفر من الموت، كما أن القتال ليس هو الذي يأتي بالموت. فمن هذه الدلالة يجب أن يعتبر الصف المسلم بأن الموت بيد الله ولا يجزع من تنفيذ أمر الله في القتال، ولا يخاف عند مواجهة أعداء الله؛ فهذا من أسباب النصر.

3- الثبات عند القتال وعدم التولي والهروب عند مواجهة الكفار، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ﴾[الأنفال: 15]. فهذا فيه دلالة على عدم الخوف من الباطل، وأنه يجب مواجهته، وأن من كان يؤمن بأنه يحمل الحق؛ فلا يتخاذل أو يتراجع عن تبليغ هذا الحق، وأن من أسباب النصر على الباطل وإزهاقه هو الثبات على الحق وعدم التراجع عن أدائه، ولذلك قيل: إنه سبحانه عدل إلى لفظ الإدبار تقبيحاً لهذا الفعل وتشنيعاً لفعل الكفار، فكان التأكيد بهذا اللفظ فيه مبالغة في التقبيح والذم لهذا الفعل؛ لأنه من الصفات القبيحة، وأن هذا النهي فيه الأمر بالثبات والمصابرة في مواجهة العدو[1]، قال ابن عاشور:(بعد أن ذكر الله ما أيدهم به وما أعطاهم من بشائر: اعترض بهذه الآية، حيث جاءت الجملة اعتراضية بين جملة قولة: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ﴾[الأنفال: 12] وَبَينَ جُملَةِ ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ ﴾[الأنفال: 17]. تحذيراً لهم من الهوان والفرار وتدريب لهم على الشجاعة والإقدام والثبات عند اللقاء)[2]. فيجب الاعتبار بأن من اسباب النصر هو الثبات وعدم التولي يوم الزحف، كما أن تذكر الوعيد الذي توعد الله به الذين يتولون يوم الزحف فيه دعوة الاعتبار بالثبات وعند الفرار.

4- عدم الركون والاعتماد على الإمكانات البشرية، حيث قال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾[التوبة: 25]. لأنه مهما كان لديك من إمكانات إذا لم يكن معها توفيق من الله لن يتم النصر. وهذا فيه دلالة يجب على الانسان ان يعتبر بها وهي عدم ركون الإنسان إلى عمله أو الاغترار به، واليقين بأن الله هو الذي وفقه إلى هذا العمل لينال به رحمة الله ورضوانه. ويجب على الإنسان

([1]) ابو حيان، **البحر المحيط**، ج5، ص292.
([2]) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج9، ص286.

المسلم أن يؤمن أن كل هذه الاستعدادات هي مجرد أسباب لا يمكن أن تكون فاعلة، إلا إذا أيدت من الله.

5- توجه الانسان الى الله في جميع أحواله وشؤونه لطلب العون والتوفيق. ولذلك نجد أن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه عندما التقى الجمعان توجه إلى الله سبحانه وتعالى بالدعاء بأن ينصرهم الله على أعدائه كما قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾[الأنفال: 9]. فعبر سبحانه وتعالى بـ(تستغيثون)؛ دلالةً على التعلق بالمستغاث به والخوف من المستغاث منه، فطلب نزول المطر من الله سمي استغاثة أو طلب الغوث من الله بأن ينزل المطر؛ لأن الإغاثة تدل على حاجة طالبها للغوث خوفاً من الهلاك؛ فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يطلب الغوث خوفاً من المشركين؛ لأنه لو كان خوفاً منهم لما خرج للقائهم، ولكن خوفاً على العصبة المؤمنة التي بموتها لا يبلّغ دين الله، ونقل عن عمر بن الخطاب أنه قال: نَظَرَ رَسُولُ اللهِ صلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ إِلَى المُشرِكِينَ وَهُم أَلفٌ، وَأَصحَابُهُ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَتِسعَةَ عَشَرَ رَجُلًا، فَاستَقبَلَ نَبِيُّ اللهِ صلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ القِبلَةَ، ثُمَّ مَدَّ يَدَيهِ، فَجَعَلَ يَهتِفُ بِرَبِّهِ: «اللهُمَّ أَنجِز لِي مَا وَعَدتَنِي، اللهُمَّ آتِ مَا وَعَدتَنِي، اللهُمَّ إِن تُهلِك هَذِهِ العِصَابَةَ مِن أَهلِ الإِسلَامِ لَا تُعبَد فِي الأَرضِ»[1]. فهذا فيه دلالة على أن الأسباب تظل أسباباً يعمل بها، ولا يتعلق بها؛ فالإنسان المسلم مطالب بأن يبذل السبب لكن لا يركن إليها بأنها هي الذي تنفع أو تضر، ولذلك كان الإمداد من الله للفئة المؤمنة إمداداً معنوياً يُطمئن القلوب، كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[الأنفال: 10]. أو بسبب يُريح به الأبدان ويثبت به الإقدام؛ ليعتمدوا على أنفسهم بمقاتلة عدوهم، كما في قوله تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السَّمَاء مَاء لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ﴾[الأنفال: 11]. تأكيداً من الله سبحانه بأنهم هم أصحاب القضية، وحريٌ بهم أن يقوموا بذلك بأنفسهم، وإلا فالله سبحانه وتعالى قادرٌ على نصرهم، ولكنه أراد أن لا يجعلهم يتساهلون في حمل رسالة الدين التي أوكلت إليهم؛ لان إحساسهم بأن الله يقاتل عنهم في كل مرة يواجهون فيها العدو يجعلهم ذلك يتكاسلون ويركنون إلى عدم العمل والتضحية من أجل الدين.

([1]) الامام مسلم، **صحيح مسلم بشرح النووي**، ج12، ص72.

المبحث الثالث

دلالة الاعتبار في سياق الآيات الكونية

إن كمال العظة والعبرة عندما يكون بأمر مشاهد فإن وقعه في النفس أكبر والاعتبار به أولى، وذلك لأنك لو تحدثت لأي أحد عن أمر لم يشاهده لا يمكن أن يدركه أو يفهمه كالأمر الذي يشاهده، ومهما طلبت من إنسان أن يعتبر بأمر أو يتعظ به دون أن يكون معلوم لديه لن يتم منه ذلك. ولذلك تجلت عظمة هذا الكتاب العزيز في لفت الأنظار لما يراد منه أخذ العبرة والعظة. وإن من أعظم الأمور التي طلب منا الاعتبار بها هي الأمور التي دائماً نشاهدها بل ربما يُلفت انتباهنا إلى مشاهدتها والتفكر بها ليتم الاعتبار بها على أكمل وجه.

ومنها الآيات الكونية التي نحن بصدد بيان دلالات الاعتبار التي جاءت فيها فالله سبحانه وتعالى جعل هذه الآيات متنوعة مختلفة فمنها ما يكون بالتعاقب كالليل والنهار ومنها ما يكون بالعظمة كالجبال ومنها ما يكون بالتخويف كالزلازل والبراكين والخسوف والكسوف ومنها ما يكون بالحاجة إليه كالنجوم، ومنها ما يكون مكان للبحث عن الرزق كالبحار والانهار.

وآيات الله في الكون كثيرة، ومنها ما لا يعلمه إلا الله وكل هذه الآيات المتعاقبة المختلفة في حجمها وفي نوعها وفي وقتها كلها لأجل أن يتم الاعتبار بعظمة الله، وقدرته، وتدبيره، ورحمته، وحكمته. لأن الإنسان العاقل عندما يعمل عقله بهذا الكون البديع لا بد أن يؤمن هذا العقل بمن أوجد هذه الآيات ولذلك كان من منهج القرآن الكريم في الدعوة إلى الاعتبار لفت الأنظار الى هذا الملكوت العظيم كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: 75]. فهذا فيه دلالة على أن مشاهدة هذه الآيات الكونية فيها عظة وعبرة يجب الاعتبار بها، وهذا محور هذا المبحث، ولكن الآيات الكونية التي ذكرت في القرآن كانت متنوعة بين الثابتة التي تكون ظاهرة مشاهدة لا تختفي ولا تتغير ولا يحدث لها تعاقب وهناك آيات كونية متعاقبة متغيرة تظهر وتغيب وهذا ما ستتناوله هذه الدراسة كلٍ على حدة.

المطلب الأول: مفهوم الآيات الكونية

إن مفهوم الآيات الكونية يعتبر مركباً من كلمتين الأولى الآيات والثانية الكونية ولكي نستطيع فهم معناها لابد لنا من تعريف كل كلمة على حدة ومن ثم تعريفها مركبة.

أولاً: الآيات: هي جمع آية قال بن فارس:(وأصل آية أأية بوزن أعية، مهموزٌ همزتين فخففت الأخيرة فامتدت)[1]. وقد جاءت في عدة معان على النحو التالي:

1- العلامة: الآية هي العلامة والجمع آيات، وآيٌ، وآياءٌ جمع الجمع وقيل هذا نادر ويقال وأيَّا آيةً: وضع علامةً وأصل آيَة أوَيَةٌ بفتح الواو وقيل هذا للتخفيف ولو جاءت تامة لكانت آييةً. والآية من التنزيل سميت آية لأنها علامة لإنقطاع كلامٍ من كلام. وقيل كأنها العلامة التي يُفضَي منها غيرها كأعلام الطريق المنصوبة للهداية.

2- وجاءت بمعنى الشخص للدلالة على رجل بعينه كقول تأيّا الشيء: تعمد آيَتَهُ أي شخصه وآية الرجل: شخصهُ ويقال: تأييته على تفاعلته إذ تعمدت آيته أي شخصه وقصدته، ولذلك كان معنى قولهم: إياك أردت؛ أي: قصدك وشخصك.

3- وجاءت أيضاً بمعنى الجماعة كقول خرج القوم بآيَتهم أي بجماعتهم لم يدعوا وراءهم شيئاً كقول الشاعر:

خرجنا من النَّقبَين لا حيَّ مِثْلنا بآيَتنا نُزجِي اللِّقاحَ المطافِلا

ولذلك سميت الآية لأنها جماعة من حروف القرآن.

4- وجاءت بمعنى العبرة وجمعها آيٌ أي أمور وعبر مختلفةٌ[2].

ثانياً: الكونية: من كون قال ابن فارس:(الكاف والواو والنون أصل يدل على الأخبار عن حدوث شيء، إما في زمان ماض، أو زمان راهن)[3]. وللكون عدة معان على النحو التالي:

1- الحدث: جاء الكون ليدل على حدوث شيء، إما في الزمان الماضي أو الزمن الراهن ويقولون كان الشيء يكون كوناً إذا وقع وحضر[4]، وقيل الكون هو الحدث بين الناس ومصدره من كان يكون ولذلك يقال نعوذ بالله من الحور بعد الكون أي نعوذ بالله من الرجوع بعد أن كان[5]، ومنه الكائنة والكينونة وهي الحادث ومنه قول كونه فتكون أي أحدثه فحدث وكون الشيء احداثه.

2- الخلق: من المعان التي جاء فيها الكون هي الخلق كما نقل ابن منظور عن سيبويه قوله:" أنا

([1]) ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، ج1، ص168.

([2]) ابن منظور، **لسان العرب**، ج14، ص61. (وجدت إن أغلب ما ذهب اليه أهل اللغة من معان حواه لسان العرب فاقتصرت عليه بتصرف)

([3]) ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، ج5، ص148.

([4]) ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، ج5، ص148.

([5]) الفراهيدي، **العين**، ج5، ص410.

أعرفك مذ كنت أي أنا أعرفك مذ خلقت". وتقول العرب لمن تشنؤه: لا كان ولا تكوّن أي لا خلق ولا تحرك أي مات، والله مكوّن الأشياء يخرجها من العدم إلى الوجود[1].

3- الجرم: جاء الكون بمعنى الجرم أو الأجرام، والجرم هو اسم لجنس الأجسام وقيل الجرم هو الجسم المحدود[2].

4- الخضوع: إن الكون للواحد والاكوان للجمع ومنه الاستكانة وهي الخضوع[3]. وعندما نقول: كون الله؛ أي: الأجرام التي أحدثها الله في أماكنها المحددة فهي مستكنة فيها خاضعة لخالقها.

فمما سبق يتبن لنا أن معنى الآيات الكونية هي: مجموع العلامات التي تدل على خلق الله وإحداثه لهذه الأجرام والأجسام المختلفة وتسييرها في نظام بديع وجعلها ظاهرة للاعتبار.

([1]) ابن منظور، **لسان العرب**، ج13، ص363-364.
([2]) العسكري، **الفروق اللغوية**، ج1، ص158.
([3]) الرازي، **مختار الصحاح**، ج1، ص275.

المطلب الثاني: دلالة الاعتبار في سياق الآيات الكونية الثابتة

الآيات الكونية الثابتة هي التي لا تتغير أو تتبدل، وتكون مشاهدة بشكل مستمر وغالباً هذه الآيات تكون داخلةً فيها أو من ضمنها آيات كونيه أخرى، ولعل من أعظم هذه الآيات الكونية الثابتة هي السموات والأرض، وهما أكثر ما ذكرا في القرآن الكريم للاعتبار بهما؛ لأن كل ما بعد ذلك من آيات يدور في فلك هاتين الآيتين العظيمتين.

أولاً: السماوات

إن السماوات ذكرت في مواطن عدة من القرآن الكريم ما يقارب الثلاث مئة موطن، وقد حوت هذه السماوات مجموعة من الآيات الكونية التي تدعو إلى الاعتبار لكن جميعها غير ثابتة، وأعني بغير ثابتة؛ أي: تخرج ثم تغيب.

وسنتحدث عن ذلك في المطلب التالي إن شاء الله لكن وجب التنويه عليه لكلامنا في هذا المطلب عن الأصل في لهذه الآيات الكونية فناسب التوضيح لما يدور في فلك السماوات من آيات كونية.

أما في حديثنا عن السماوات في هذا الموطن فهو لثبوتها وعدم تغيرها وقد ذكرت في عدة مواطن في القرآن ولو نظرنا الى هذه المواطن التي ذكرت فيها السموات نجد أنها تحمل عدة دلالات للاعتبار هي على النحو التالي:

1- بيان فضل الله، وامتنانه علينا بالخيرات التي تأتينا من السماء. فلو نظرنا في السياقات التي ذكرت فيها السماء نجد أنها جملت منها تتكلم عن إنزال للخيرات؛ فإنزال المطر يكون من السماء الذي فيه خير للعباد، وهذا الإنزال تتجلى فيه روعة وبلاغة القرآن الكريم بما يناسب الافهام ويقرب مدارك العقول فلو سألت جميع الناس من أين يأتي المطر لأجمعوا على أنه ينزل من السحاب ولكن لماذا ذكرت هذه الآية الكونية مع أنزال المطر دون ذكر المصدر الذي يأتي منه وهو السحاب، مع أن هناك بعض المفسرين يرون أن هذا التعدي تجوزا أي مجازاً لأن السحاب يلي السماء. قال ابن عطية:(وقوله " وأنزل من السماء " يريد السحاب سمي بذلك تجوزا لما كان يلي السماء ويقاربها وقد سموا المطر سماء للمجاورة)[1]. ولكن لو كان كذلك لماذا ذكر الله أنه ينزل من السحاب الماء كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاء ثَجَّاجًا﴾[النبأ: 14]. فهذا فيه دلالة على أن ذكر السماء في إنزال المطر المراد منه المصدرية الربانية لمناسبة السياق. فعندما يأتي ذكر إنزال المطر مرتبطاً بالسماء يراد منه بيان مصدرية

([1]) ابن عطية، **المحرر الوجيز**، ج1، ص92.

هذا الخيرو وأنه من عند الله ودعوةً لهم بأن يعبدوا من تفضل عليهم بهذا الخير كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاء بِنَاء وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُون﴾[البقرة: 22]. فارتبطت هذه الآية الكونية ببيان مصدرية الخير وأنه من عند الله؛ ولذلك قال عنها سبحانه: (بناءً)؛ تشبيهاً لها بالقبة المبنية على الأرض[1]، فكان هذا التشبيه البليغ لنفعها كالبنيان تقريباً للأذهان وتوضيحاً للأفهام، مع البيان أن هذا الأمر لا يقدر عليه الا الله وبيان لسلطانه فكأنه تذكيراً لهم من خلال هذا الإنزال الذي لا يقدر عليه من جعله نداً لله وشريكاً في العبادة[2]. قال الزمخشري:(ليكون لهم ذلك معتبرا ومتسلقا إلى النظر الموصل إلى التوحيد والاعتراف ونعمة يتعرفونها فيقابلونها بلازم الشكر ويتفكرون في خلق أنفسهم وخلق ما فوقهم وتحتهم وان شيئا من هذه المخلوقات كلها لا يقدر على ايجاد شيء منها فيتيقنوا عند ذلك ان لا بد لها من خالق ليس كمثلها حتى لا يجعلوا المخلوقات له اندادا)[3].

2- بيان قوة الله وقدرته وعظمته. فيجب أن يعتبر من ينظر في السماء عند هطول الأمطار مستبشراً بما نزل منها من خير، بأنها أيضاً مصدر لنزول العذاب، تتجلى فيه قوة وعظمة الله سبحانه وتعالى. حيث جاء في نفس السورة التي ذكر فيها إنزال الخير والدعوة إلى العبادة جاء التعقيب بالوعيد من الله بإنزال العذاب على المعرضين عن عبادة الله، وأن هذا العذاب من نفس مصدر الخير الذي أنزله عليهم؛ حيث قال تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاء بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُون﴾[البقرة: 59]. فكان نزول العذاب وربطه بالسماء دلالة على نزوله من الله وأن الأمر الذي يأتي هو من عند الله، والسماء إشارة لوجوده سبحانه فيها، كما في قوله تعالى: ﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُور * أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِير﴾[المُلك: 16 - 17]. فلفظ السماء هنا فيه دلالة على الجهة التي يأتي منها العذاب وإشارة إلى الجهة التي يكون منها القضاء أو المبالغة في علوه بالقهر والاستيلاء[4].

3- بيان علم الله وإحاطته بكل ما يدور في هذا الكون. كما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ

([1]) ابو حيان، **البحر المحيط**، ج1، ص151.
([2]) الطبري، **تفسير الطبري**، ج1، ص367.
([3]) الزمخشري، **الكشاف**، ج1، ص124.
([4]) الالوسي، **روح المعاني**، ج1، ص267.

شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء﴾[آل عمران: 5]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾[يونس: 61]. فهذا فيه دلالة على سعة علم الله وأنه سبحانه إذا كان علمه قد وسع السماء وما فيها بعمومها دون تحديد سماء دون أخرى حري بالعبد أن يدعوه ذلك إلى الاعتبار، بأن لا يعمل إلا ما يرضي الله؛ لعلمه على اطلاع الله عليه، وعلمه بما يصنع وهو محصيها كلها ليجازي كلٌ بعمله[1].

4- فيه دلالة على التكليف؛ أي: أن الذين كلفوا بالعبادة وأعطوا الاختيار في هذا التكليف، هم من يعيشون في فلك هذه السماء، وأن كل ما يحدث تحت هذه السماء مكتوب وسيحاسب عليه كل مكلف في هذه الدنيا، ومصداق ذلك قول الله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاء وَالأَرْضِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾[النمل: 75]. ومنه كذلك قوله تعالى:(إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (5) هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)[آل عمران:6]. قال الزمخشري:(لا يخفى عليه شيء في العالم فعبر عنه بالسماء والأرض فهو مطلع على كفر من كفر وإيمان من آمن وهو مجازيهم عليه كيف يشاء)[2]. لأن علم الله بالغائب في السماء أو الأرض فيه تأكيد على علم الله بما يخفي الإنسان في صدره، لأن هذه الآية عطف على جملة ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾[النمل: 74]. فكان ذلك تنبهاً لهم من غفلتهم عن إحاطة علم الله لما تكن صدورهم وما يعلنون[3]. فالعلم المطلق للغائب في السماء دلالة إلى الاعتبار بعلم الله بما في القلوب فيحرص الإنسان على أن يخلص النية لله، قال الزمخشري:(إن التاء في غائبة للمبالغة، وكأنه قال: وما من شيء شديد الغيبوبة والخفاء إلا وقد علمه الله وأحاط به وأثبته في اللوح)[4]. وزيادة على ذلك يكتب ويحفظ ليحاسب عليه فاعله، ولذلك جاءت (مبين)؛ أي: بين للمحاسب مكتوب يراه عند الحساب.

5- إن التأمل في هذه الآيات الكونية، فيه النجاة من عذاب الله. لأن الاعتبار بهذه الآيات هو السبب في النجاة؛ لأن الفكر فيما أودع الله في السماوات من الكواكب والأفلاك يبهر العقل ويكثر

([1]) الطبري، **تفسير الطبري**، ج11، ص12.
([2]) الزمخشري، **الكشاف**، ج1، ص364.
([3]) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج20، ص29.
([4]) الزمخشري، **الكشاف**، ج3، ص386.

العبر[1]. قال تعالى: { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}[آل عمران: 190 - 191]. قال الزمخشري: لأن بيان عظم هذه الأجرام العظام وتدبر هذا الأمر الذي لا تدركه الأفهام فيه دعوة إلى الاعتبار بعظم سلطان الصانع وكبرياءه[2]. كما أن فائدة هذا التأمل والتفكر يدفع الإنسان إلى المعرفة بوجود مالك لهذا الكون مصرف لشؤونه مدبر لأمره، لأن خلق السماوات والأرض من أعظم الأدلة على كمال قدرة الله وعلمه وتفرده بربوبيته[3]. مما ينتج عنه العبادة لله وحدة فيتحقق بذلك رضا الله سبحانه، الذي برضاه تتم النجاة من النار. ولذلك جاء التعقيب على ذلك بتحقيق التفكر استجابة الله لهم كما قال تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى﴾[آل عمران: 195].

6- ومن هذه الدلالات التدليل على عظم ملك الله وأن الأمر له وحدة حيث جاءت في مواطن عدة هذه الآية الكونية مرتبطة بملك الله وبتصريف الله سبحانه لهذا الكون وتدبير أمره، قال تعالى: ﴿وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللّهُ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٍ﴾[آل عمران:189]. فهذه الآية فيها دلالة على أن المالك له الحق في التصرف في ملكه بما يشاء، فلله تدبير السموات والأرض وما بينهما وتصريفه وبيده أمره وله ملكه[4]. لأن الإنسان إذا عرف أن هذا الكون هو ملك لله، فهذا يدفعه إلى الاعتبار بأنه وما يملك هو ملك لله سبحانه فيدفعه إلى الإيمان وعبادة الله وحدة.

7- الدعوة الى عبادة الله وحده. ويكون ذلك من خلال الاعتبار الذي ينتج عن التفكر بمن أوجد هذا الخلق البديع كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾[يونس: 3]. وهذا فيه دلالة على أن هذا الكون العجيب بآياته العظام ونظامه البديع هو من صنعة الله سبحانه وتعالى، ولكن لا يدرك ذلك إلا من يتذكر في هذه الملكوت ويكرر التفكر في هذا الخلق، ولذلك جاء

([1]) ابو حيان، **البحر المحيط**، ج3، ص470.
([2]) الزمخشري، **الكشاف**، ج1، ص482.
([3]) الالوسي، **روح المعاني**، ج12، ص106.
([4]) الطبري، **تفسير الطبري**، ج10، ص154.

التعقيب بخلق السماوات متنوع في طلب هذا التأمل فمرة لأصحاب العقول والألباب ومرة للمتذكرين المتفكرين ومرة بتوجيه الخطاب للعالمين، كأنه يريد بيان أن كل إنسان في هذا العلم إذا أعمل عقله وفكره، وكرر هذا العمل لا بد أن يرشده هذا التأمل والتفكر في هذه الآية الكونية إلى الخالق سبحانه وتعالى، وقد أشار الطبري: أن هذا التفكر يجعل الانسان يتعظ ويعتبر بهذه الآيات والحجج فينيب لله بالتوحيد والإذعان له بالطاعة[1]؛ لأن الفطرة السليمة يكفي أن توجه إلى مشاهدة هذا الكون وأسراره، فتستيقظ فيها أجهزة الاستقبال والتلقي فعند أذن تتفتح وتستجيب لأمر الله، ولذلك يكثر خطاب الفطرة البشرية في القرآن[2].

8- قدرة الله على الخلق، ومحاجة الكافرين في البعث والأحياء بعد الموت. حيث جاءت مجموعة من الآيات التي فيها ذكر خلق السموات للمحاجة في خلق الإنسان، فعند بيان خلق الإنسان، يأتي ذكر خلق السماوات كما في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ﴾[الأنعام: 1]. فجاء معقباً بعد ذكر هذه المقدمة بخلق السماوات لبيان خلق الإنسان في الآية التي بعدها مباشره في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾[الأنعام: 2]. فذكر خلق الإنسان بعد ذكر خلق السماوات فيه دلالة على أنك أيها الإنسان الصغير البسيط مقارنةً بمن ذكر خلقك بعده حري بك أن تعتبر وتعود إلى خالقك بالطاعة. كما أن فيها محاجة للذين أنكروا البعث بعد الموت كما في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَّ رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إَلاَّ كُفُورًا﴾[الإسراء: 99]. فالإتيان بذكر خلق السموات في هذا الموطن فيه دلالة على ضعف الحجة للمنكرين؛ أي: كيف تنكرون ذلك وقد خلق سبحانه وتعالى أعظم من ذلك بكثير.

([1]) الطبري، **تفسير الطبري**، ج15، ص19.
([2]) قطب، **في ظلال القرآن**، ج3، ص1749.

وكذلك في خلق هذه الآيات الكونية رد على من أنكروا البعث بعد الموت كما في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٍ﴾[الأحقاف: 33]. ولذلك جاء الخطاب لهم بألم يروا أي أنهم لو نظروا بأعين قلوبهم إلى أن الذي خلق هذا الكون ليس بعاجز أن يخلقهم ويعيد خلقهم كما كان يوم القيامة وأن من قدر على ذلك الخلق الكوني العظيم فلا يمتنع عليه ذلك[1].

فلا بد للإنسان عندما يجول ناظره في هذا الكون البديع أن يدعوه ذلك إلى التأمل في دقة هذه الصناعة، وأن وراء هذا الكون العظيم خالق عظيم يدبر شؤونه ويصرف أموره، مما يدعو إلى الاعتبار بتوحيد الله وإخلاص العبادة له دون سواه.

ثانياً: الأرض

إن الأرض من الآيات الكونية الملموسة للناس التي حفظت آثار الذين كانوا فيها من قبل ليعتبر من جاء الى هذه الأماكن من الأرض عند مروره بها وسيره عليها ولذلك جاء التوجيه

القرآني الى الناس بأن يسيروا فيها لكي يروا هذه الآثار، فيعتبروا ومنها ما يلي:

1- الاعتبار بمصارع المجرمين. حيث أن الله جعل على الأرض علامات شاهدةً على تلك المصارع، وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[الأنعام: 11]. وفي آية أخرى: (عاقبة المجرمين)، لأن فيه دلالة على أن الأرض يحفظ عليها آثار المجرمين عبرةً للمعتبرين. وقال الطبري في تأويلها:(أي قل يا محمد لهؤلاء العادلين بيَ الأوثانَ والأندادَ، المكذِّبين بك، الجاحدين حقيقة ما جئتهم به من عندي "سيروا في الأرض"، يقول: جولوا في بلاد المكذِّبين رسلهم، الجاحدين آياتي مِنْ قبلهم من ضُربائهم وأشكالهم من الناس "ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين"، يقول: ثم انظروا كيف أعقَبَهم تكذيبهم ذلك، الهلاك والعطب وخزي الدنيا وعارها، وما حلَّ بهم من سَخَط الله عليهم، من البوار وخراب الديار وعفوِّ الآثار. فاعتبروا به، إن لم تنهكم حُلُومكم، ولم تزجركم حُجج الله

([1]) الطبري، **تفسير الطبري**، ج17، ص562.

عليكم، عمَّا أنتم عليه مقيمون من التكذيب، فاحذروا مثل مصارعهم، واتقوا أن يحلّ بكم مثلُ الذي حلّ بهم)[1].

2- تسخير الأرض وتذليلها للإنسان لكي يعيش ويتمتع بخيراتها إلى حين وهو موته ومفارقته لهذه الدنيا. لكن كثير من الناس لا يدرك عظم هذه الآية الكونية وكيف سخرها الله لهم فلو اهتزت أو مالت قليلاً لما استطاع الناس من الثبات عليها كما قال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾[طه: 53]. فلو لم يجعل الله لنا هذه الأرض ممهدة، وسلك لنا فيها السبل لما استطعنا السير فيها، فالتذكير بهذه النعمة دلالة على استحقاق الألوهية لله وأن غيرة غير مستحق لها[2]، لأنه لا يمكن لصاحب عقل سليم يتأمل في هذه الآية الكونية ولا يدله ذلك على الخالق المدبر سبحانه وتعالى[3]، ولذلك جاء التعقيب بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾[طه: 54]. كما جعلها الله مذللة لنا نسير ونتحرك فيها كيف نشاء ونزرعها ونأكل من ثمرها حيث قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾[المُلك: 15]. فهذا فيه دلالة على امتنان الله على عبادة ودليل على قدرته وعلمه بخلق الإنسان حيث كان ذكرها بعد ذكر العلم بالخلق[4]. بل زاد على ذلك بأن ذلل لنا الصعاب فيها ويسر لنا السير فيها فالمناكب هي أعلى الشيء فإذا تيسر لنا السير في المرتفع سهل السير في غيرة وهذا من بديع نظم القرآن الكريم، فهذا الأمر يجب أن يجعلنا نعتبر في ذلك وأن ندين لمن سخر لنا كل هذا فلم يذكر هذه الآية الكونية عبثاً ولذلك جاء التعقيب في الآية التي بعدها بالتذكير بأن خالقها قادر على أن يغير أمرها حيث قال تعالى: ﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾[المُلك: 16].

([1]) الطبري، **تفسير الطبري**، ج11، ص273.
([2]) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج16، ص236.
([3]) قطب، **في ظلال القرآن**، ج4، ص2339.
([4]) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج29، ص31.

3- ضرب الله الأرض مثالاً للبعث والأحياء بعد الموت. من خلال ما يحدث لها من إحياء بعد موتها كما في قوله تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير}[فُصِّلت: 39]. فكان مجيء الأرض في هذا السياق دلالة على قدرة الله في إحياء الموتى يوم القيامة والاعتبار بأن من أحيى هذه الأرض الميتة بأنواع مختلفة من النباتات لقادر على أن يحيي الموتى، وقد ذكر ابن عاشور: أن التشبيه جاء على هذه القدرة بالبعث كدليل أقناعي لعدم قدرة احد على ذلك إلا الخالق سبحانه وتعالى[1]. وقال ابن عطية:(ليعتبر بها في أمر البعث من القبور، ويستدل بما شوهد من هذه على ما لم يشاهد بعد من تلك، وهي آية يراها عيانا كل مفطور على عقل)[2]. وهذا من أساليب القرآن البلاغية التي تقرب للأذهان الحق وتبينه لهم من خلال تشبيه شيء غيبي بشيء مشاهد لهم وكذلك لإقامة الحجة عليهم بإظهار قدرة الله سبحانه وتعالى على كل شيء ولذلك جاء التعقيب بذكر ذلك.

4- حملها لآيات كونية فيها عبرة للمعتبرين. فالأرض علاوة على أنها آية كونية حملت كذلك من الآيات الكونية ما فيه عبرة، حيث قال تعالى: {وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِين}[الذاريات:20]. قال ابوحيان:(في الأرض آيات تدل على الصانع وقدرته، وتدبيره، وهي مجزئة من سهل ووعر، وبر وبحر)[3]. ولأن فيها عبراً وعظات لأهل اليقين إذا ساروا فيها رأوها[4]. ومنه أيضاً ما ذكره ابن عاشور: أن هذه الآيات التي على الأرض صالحة للدلالة على تفرد الله سبحانه بالألوهية في كيفية خلقها وكيفية تقسيمها الى سهل وجبل وبحر[5].

ومن هذه الآيات التي في الأرض ما يلي:

أ. الجبال

فالجبال من الآيات الكونية التي عندما يمر بها الإنسان ويتأمل عظمتها وكيف خلقها فإنها تدل على عظمة خالقها، فكان وجودها وانتصابها في الأرض فيه دعوة إلى الاعتبار بعدة أمور منها:

([1]) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج24، ص303.
([2]) ابن عطية، المحرر الوجيز، ج5، ص18.
([3]) ابو حيان، **البحر المحيط**، ج9، ص552.
([4]) الطبري، **تفسير الطبري**، ج22، ص418.
([5]) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج26، ص352.

1- عظمة الله سبحانه وتعالى وقدرته في خلقة. ولهذا الأمر طلب منا النظر اليها للاعتبار بهذه العظمة والقدرة للخالق سبحانه. حيث قال تعالى: ﴿وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾[الغاشية: 19]. حيث أنه سبقها طلب الاعتبار بقوله (أفلا ينظرون)، حيث أن هذه النظر هو للاعتبار بما جاء من عبر تلي هذا الطلب[1]، وخلق الجبال في استدلالٌ على عظيم قدرة الله لما في خلقها من العظمة المشاهدة[2]. فتأملها من أسباب حصول العبرة لورودها في سياق التذكير بالخالق عز وجل والتأمل بما خلق وبما أعد لمن أمتثل لطاعته معتبراً بما يرى من مشاهد قدرته من حوله. وقد تجلت هذه القدرة بأن كان أغلب المواطن التي ذكرت فيها الجبال هو بيان لحالها يوم القيامة، وتحولها الى تراب متناثر بعد أن كانت حجارة جامدة في الدنيا حيث قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا﴾[المزَّمل: 14]. ومهما تنوع وصفها يوم القيامة فقد توحد معناها بأنها تكون خفيفة كالعهن تسير وتنسف بأمر الله فلا يكون لها أثر كما قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾[طه:105 - 106]. فإذا كان حال هذه المخلوقات العظام التي كانت في الدنيا رواسي للأرض لقوتها وعظمتها وشموخها ينتقل السياق القرآني من ذكر دورها في الدنيا إلى حالها يوم القيامة، وما يفعل بها، فما حالك أيها الإنسان الضعيف أمام هذه الأهوال، فهذه صورة للهول تتجاوز الناس إلى الأرض في أكبر مجالها لبيان ضعف الإنسان أمامها[3]. وهذا كله دلالة على قدرة الله.

2- تعظيم القرآن الكريم. حيث جعل سبحانه هذه الجبال بيان لعظمة كتاب الله من خلال بيان حالها مع القرآن الكريم، حيث قال تعالى:(وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا)[الرعد:31]. قال ابن عطية:(وتتضمن الآية، على هذا، تعظيم القرآن، وهذا قول حسن يحرز فصاحة الآية)[4]. وقد ذكر ابوحيان: أن من تعظيم القرآن أنه لو هناك قرآناً تسير به الجبال عن مقارها، أو تقطع به الأرض قطعاً، أو يكلم به الموتى فيسمعوا ويجيبوا، لكان هذا القرآن، لما يحتويه من تذكير، وانذار وتخويف[5]. وكذلك في موطن آخر

([1]) الزمخشري، **الكشاف**، ج4، ص746.
([2]) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج13، ص82.
([3]) قطب، **في ظلال القرآن**، ج6، ص3747.
([4]) ابن عطية، **المحرر الوجيز**، ج3، ص313.
([5]) ابوحيان، **البحر المحيط**، ج6، ص388.

تتبين هذه العظمة ايضاً من خلال الجبال، حيث قال تعالى:(لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)[الحشر:21]. قال ابو السعود: إن هذا القرآن العظيم الشأن الذي يحمل انواع القوارع لو نزل على جبل من الجبال التي هي مثال القوة والقسوة وعدم التأثير، تراه يتشقق متصدعاً خاشعاً من خشية الله، وأن سبب قراءة متصدعاً بالإدغام لتخييل والتمثيل لهذا التصدع، لبيان علو شأن القرآن وقوة تأثيره لما فيه من المواعظ والعبر، وأن قوله(وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) اريد منه التوبيخ للناس على قسوة قلوبهم وعدم تخشعهم عند قراءته وتدبره[1].

ب. البحار

إن من الآيات التي أوجدها الله على هذه الأرض تلك البحار التي تتلاطم أمواجها، وتعيش في الأعماق حيتانها وتزخر بالكنوز بطونها وتعيش فيها من الكائنات ما نعلمه وما لا يعلمه إلا الله، فهو موجدها وخالقها فهي من أعظم الآيات على هذه الأرض؛ لما تحويه من عبر في داخلها، حيث قال تعالى:(وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)[فاطر:12). وقد ذكرت البحار في مواطن عدة من القرآن؛ ليعتبر بها أولي الأبصار وقد تنوعت هذه العبر في سياقات ذكر البحار في عدة دلالات هي:

1- فيها بيان لقدرة الله وعظمة خلقة وأنعامه على الناس. فالتنوع في البحار، بحيث منها ما هو عذب سائغ شرابه ومنها ما هو ملح أُجاج لا يمكن شربه مع أنه من نفس التكوين فهذا فيه دلالة على قدرة سبحانه، على جعلها بهذه الصورة وهي نفس الأصل، وهذا في حال الافتراق فما بالك في حال الالتقاء لا يتم بينها اختلاط، حيث قال تعالى:(وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا)[الفرقان:53]. فسبحان من جعل هذا العذب لا يمكن أن يختلط بالمالح لأنه لو حدث ذلك لختلت الماء وطغى إحداهما على الآخر، وما استطاع احد من أن يجد ماءً يشربه فهذا من النعم العظيمة التي أنعم الله بها على الناس. قال الطبري:(أنه من نعمته على خلقه، وعظيم سلطانه، يخلط ماء البحر العذب بماء البحر الملح الأجاج، ثم يمنع الملح من تغيير العذب عن عذوبته، وإفساده إياه بقضائه وقدرته،

([1]) ابو السعود، **إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم**، ج8، ص233.

لئلا يضرّ إفساده إياه بركبان الملح منهما، فلا يجدوا ماء يشربونه عند حاجتهم إلى الماء)[1].
كما أن في هذا التفريق بيان لقدرة الله؛ فلا يمتزج العذب مع المالح مع أنهما من نفس الجنس وفي نفس المكان، كما قال تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾[الرحمن: 19 - 20]. وهذا خبر من الرحمن سبحانه وتعالى للعبرة بخلق البحار والأنهار، وهذا فيه دلالة للاعتبار بقدرة الله وعظمته وعلمه وحكمته وامتنانه بما أودعهما من منافع للناس[2].

2- تفضل الله على الناس بتسخير البحار لهم وتمتعهم بأنواع الأرزاق التي اودعها في بطون البحار. فمن هذه الأرزاق ما هو مأكل، وما هو مكسب، وجعله أيضاً مركباً نسافر فيه كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[النحل: 14]. وكل هذا لنعتبر أن الذي جعل في بطون هذه البحار من الأرزاق هو من يستحق الشكر بالرجوع إليه وتوحيده بالعبادة. فلولا تسخيره لنا من الله لما استطعنا أن نقترب منه ولأهلكتنا أمواجه المتلاطمة، ولا استطعنا ركوب الفلك فيه فالله سبحانه من ذلل هذا البحر لعبادة حتى يتمكنوا من ركوبه لبلوغ الأقطار التي تحول دونها البحار حيث أن تسخير البحر للركوب من أعظم آيات الله[3]، ولذلك جاء التأكيد على هذه النعمة العظيمة في عدة مواطن أن لم تكن أكثر المواطن التي جاء فيها ذكر البحر إلا وجاء تذكير الناس بهذه النعمة حيث قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[لقمان: 31]. ولذلك في هذا الزمان يعتبر النقل عن طريق البحار من أكبر النعم التي أنعم الله بها على العباد حيث لو لا تسخير الله لهم هذا البحر لما استطاعوا نقل كل هذا الكم الهائل منها، بل أصبحت الوسيلة الأهم في هذا المجال لكسب الرزق علاوة على ما تزخر به هذه البحار من أرزاق في بطونها.

3- فيه دلالة على ضعف الإنسان أمام آيات الله. وأنه هو المتفضل على عبادة في تسخيرها لهم ولذلك جاء تسمية هذا التسخير بالنعمة، لكي يتفكر الناس بهذا الامر ويعتبروا بقدرة من سخر لهم هذا الأمر، وهذا فيه دلالة على امتنان الله على عبادة بالنعم وأنه يجب عليهم شكره ولذلك

([1]) الطبري، **تفسير الطبري**، ج19، ص283.
([2]) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج27، ص248.
([3]) الشنقيطي، **أضواء البيان**، ج2، ص343.

جاء التعقيب بـ(لعلهم يشكرون)[1]. وكل هذه النعم لا يمكن أن يدركها الإنسان الغافل، بل لا بد من التفكر بكل هذه الآيات الكونية ليتم الشكر. ولذلك جاء التعقيب في سورة الجاثية على ذكر هذا التسخير بأنه للتفكر الذي يعود على صاحبه بالاعتبار؛ حيث قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[الجاثية: 13].

4- وللبحر في القرآن دلالة على العذاب. وفيه بيان أن هذا البحر هو جندي من جنود الله، فعند مشاهدة البحر وتلاطم أمواجه يدعونا ذلك الى الاعتبار بمصارع الكافرين وكيف تم اغراقهم. حيث ذكر البحر مرتبطاً في العذاب في عدة سياقات في القرآن، منها قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾[البقرة: 50]. فبين سبحانه أن العذاب الذي أصاب قوم فرعون كان بالإغراق حيث كان سياق الآيات يتكلم عن تعذيب فرعون لبني إسرائيل وكيف أن الله أنجاهم وعذب فرعون بالغرق نظير تعذيبه لهم. ومما يدل على ذلك ذكره سبحانه بأن الإغراق من وسائل التعذيب للمذنبين حين ذكر أخذه لهم بقوله تعالى: ﴿فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[العنكبوت: 40]. فكان الإغراق نوعاً من أنواع العذاب التي أخذ الله بها المذنبين. فكما أن هذه الآية الكونية العظيمة مصدر رزق وخير للناس، فهي كذلك مصدر عذاب للمعاندين الكافرين، كما حدث مع قوم نوح ومع فرعون وقومه. ولذلك قيل: أجمل في هذه الآية العناصر الأربعة التي عذب فيها المذنبين ولا يخفى على أحد أن الغرق إشارة على التعذيب بعنصر الماء[2]. فيجب على الإنسان عند وقوفه على شاطئ هذا اليم العظيم يتذكر أنه آية من آيات الله التي قهر به العتاة والمجرمين وكان سبب في نجاة الفئة المسلمة من بطش الطغاة، فيجعل ذلك البحر تذكاراً له على قوة الله وجبروته وكيف أخذ الله به الظالمين.

([1]) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج14، ص18.
([2]) الالوسي، **روح المعاني**، ج20، ص159.

فالآيات الكونية الثابتة فيها دلالة على الاعتبار بقوة الله وتخويفه للناس من عبادةِ غيرة من خلال هذه الآيات التي تدل على قوته وعظمته سبحانه، فيجب على الإنسان عند سيره سواء في البر أو البحر ويشاهد من آيات الله ما يجعله يدرك هذه القوة التي تحميه عند ركوب البحار وتلاطم الأمواج، فيعرف أن ليس هناك من يلتجئ إليه في هذا المكان إلا الله وحده، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـذِهِ لَنَكُونَنِّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [يونس: 22].

المطلب الثالث: دلالة الاعتبار في سياق الآيات الكونية المتغيرة

إن من حكمة الله في هذه الآيات الكونية أن جعلها عبر لمن تأملها ومواعظ لمن تفكر بها وتذكرت لمن اعتبر بها وكما سبق وذكرنا في بداية هذا المبحث أن منها الثابت وتكلمنا عنه ومنها المتغير، وهو ما نحن في صدد ذكره فالتغير فيها له حكمته، وله دلالاته في السياق.

ونقصد بالمتغيرة أي هي التي لا تبقى على حالها ثابتة، بحيث إنها تظهر ثم تغيب، ثم تظهر مرة أخرى، واخترنا التغير على التعاقب والاختلاف لكي يتناسب مع موضوع البحث؛ حيث إنه إذا قلنا: متعاقبة؛ أي: أن هذه الآية تذهب وتأتي آية مكانها، ولو قلنا: اختلاف؛ يمكن أن يفهم أنها تذهب وتأتي آية غيرها، أما إذا قلنا: متغيرة، فهي تشمل الآيات التي تظهر وتغيب، وكذلك تشمل الآيات التي تتعاقب مثل الليل والنهار بحيث أن الدنيا تتغير من ليل إلى نهار، وهكذا.

وتشمل أيضاً الحوادث الكونية التي تظهر من فترةٍ إلى أخرى؛ مثل: الكسوف والخسوف، بحيث تتغير هيئة الشمس أو هيئة القمر أو التغير الحاصل في الجو من سحب ورياح وغير ذلك. فعند البحث في هذه الآيات الكونية وجدت إن أنسب شيء أن يطلق عليها متغيرة لشمولية هذا المعنى لجميع الأحوال التي تحدث في هذه الآيات الكونية.

وتبين لي أيضاً إن هذه الآيات المتغيرة متعلقة بالسماء أي أن كل الآيات التي تتغير تدور في فلكها بخلاف الآيات الثابتة فجميعها يدور في فلك الأرض؛ فالسبب في ذلك والله أعلم: أن الشيء المشاهد أمام العين باستمرار يفقد تأثيره في النفس بحيث لا يكون له الوقع أو الأثر عند التغير، فالأمر الذي يكون في السماء أو يخرج في السماء يكون مشاهد لجميع الناس، فطول مشاهدتهم له يفقده موعظته أو فائدته التي خلق لأجلها، فكان من بديع خلق الله أن جعلها متغيرة ليناسب ذلك النفس البشرية التي تميل إلى التغيير.

أما لو قال قائل: لماذا الآيات الثابتة التي في الأرض لا يجري عليها من الحكمة كما يجري على التي في السماء؟

فأقول: إن التي في الأرض ليست مشاهدة لجميع الناس، فلا تكون مشاهدة إلا لمن نزل بها وسار فيها وليست كل الأرض جبالاً، كما أنها ليست كلها بحاراً، فحالها كحال تلك الآيات التي تتغير ولكن لا تتغير بذاتها بل تتغير بحال من مر بها فتجده عند سيره في سهل يخرج له جبلاً شامخاً يدفعه إلى التفكر بمن نصبه وثبته ثم يفارقه، وهكذا فحاله بالسير بين هذه السهول والجبال دافع إلى الاعتبار، وكذلك البحار فلا إقامة في البحر بل هو مرور ومفارقة، وهذا حالنا على هذه الأرض؛ لا نرى منها إلا ما هو أمامنا، بعكس ما يكون في السماء من آيات.

ولو تأملنا الآيات الكونية المتغيرة نجدها كثيرة، وهذا ما يناسب هذا التغير؛ فلا بد أن يكون الإنسان في تأمل في هذا الملكوت العجيب الذي أحسن صنعته رب العالمين، ومن هذه الآيات المتغيرة ما يأتي:

أ. الشمس والقمر:

إن هاتين الآيتين الكونيتين ذكرتا في كتاب الله في واحد وعشرين مواطناً، وكانت الشمس مقدمة على القمر في جميع هذه المواطن ما عدا في موطنين؛ تقدم القمر على الشمس:

الأول في سورة الأنعام، وكان لمناسبة السياق ؛حيث كان الحديث عن تأمل سيدنا إبراهيم لملكوت السماوات والأرض، وكان قد بدأ هذا التأمل في الليل، كما بين سبحانه وتعالى في قوله: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾[الأنعام: 75 - 76]. فلا يمكن أن يتقدم ما يتعلق بالنهار على ما يتعلق بالليل، وهذا من جمال نظم هذا الكتاب العزيز، كما أن فيه دلالة على الدعوة إلى الاعتبار بهذا التأمل.

والموطن الثاني كان في سورة نوح، وكان السياق يتكلم عن التدرج في الخلق من الأصغر إلى الأكبر، أو من الأسفل إلى الأعلى؛ حيث قال تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا* أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾[نوح: 13 - 16]. فناسب تقديم الأصغر على الأكبر لمناسبة السياق. وهذا الاستطراد ذكرته لأني أرى فيه نكتةً بلاغية، وفائدة علمية.

أما فيما يتعلق بدلالة الاعتبار في الشمس والقمر فهو يكون بحسب السياق الذي جاءتا فيه، وقد جاءت فيهما عدة دلالات للاعتبار هي:

1- قدرة الله وتدبيره. وكان ذلك في سياق آيات الخلق، فعند ذكر خلق السماوات والأرض يذكر الله سبحانه وتعالى خلق الشمس والقمر وتسخيرهما في هذا الكون كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ

وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[الأعراف: 54] فهذا التسخير دلالة على كمال الخلق وتدبيره؛ للتأكيد أن الذي خلق هذا الكون يعلم ما يناسب كل خلق فكمله به، وليعلم من محصلة ذلك وجود الصانع القادر القاهر بحركات هذه الأجرام[1].

2- تفضل الله على الناس من خلال هاتين الآيتين في تنظيم شؤونهم. ويكون ذلك بمعرفة المواقيت والحساب حيث قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[يونس: 5]. ولذلك نجد إن في المواطن التي يذكر فيها التفضل على الناس بالعلم يذكر من ضمنها الشمس والقمر للدلالة على معرفة الوقت كما في قوله تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾[الرحمن: 5]؛ لأن في طلوعهما وغروبهما وقطعهما للبروج فيه حسابات شتى[2]، تنفعهم في معايشهم. وكل هذا تأكيد لبيان نعمة الله على خلقه بأن جعل من مخلوقاته ما يعينهم على العيش في هذه الدنيا لكي يتفكروا في هذه النعم، ويقومون بالأعمال التي تقرب إلى الله في هذه الدنيا لأن هذه المخلوقات التي سخرت لهم كانت لهذا الغرض ونفعها لهم لا يتم إلا في الدنيا فقط ولذلك في الآخرة يذهب الله بهذا النور منهما، ويكون ذلك بتكوير الشمس وإزالتها كما قال تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾[التكوير: 1]. وتكويرها إزالتها والذهاب بها[3]، وكان الاقتصار على الشمس في هذا الموطن دون القمر؛ لأن السبب في إضاءة القمر هي الشمس، فإذا ذهبت ذهب معها ضوء القمر. ولهذا نجد أن المواطن التي ذكرت فيها الشمس لوحدها في السياق هي أكثر من المواطن التي جاء فيها ذكر القمر وهذا لأن الشمس هي الأصل في إضاءة غيرها. وكل هذا فيه دلالة على أنها خلقة تسخيراً لبني آدم في تدبير حياته في هذه الدنيا. فيجب على الإنسان الاعتبار بأن من خلق هذا الكون بهذه الدقة ونظمه بهذا التنظيم وجعل فيه من المقومات ما يناسبه حري به أن يعود إليه بالطاعة، وأن يشكره على هذه النعم التي هيئها الله له.

([1]) الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج18، ص526.
([2]) ابن عطية، **المحرر الوجيز**، ج5، ص224.
([3]) الزمخشري، **الكشاف**، ج4، ص707.

ب. الليل والنهار:

إن في الليل والنهار دلالة للاعتبار من خلال عدة أمور هي:

1- فيهما دلالة على وحدانية الله وتفرده بالألوهية. فقد جاءتا مقترنتين في مواطن عدة من القرآن مع خلق السموات والأرض، وهذا فيه دلالة على تعلقهما بإثبات الخلق للمعاندين؛ من خلال هذا الاختلاف والتعاقب الذي أودعه الله فيهما من خلال تفكرهما بهذا الاختلاف، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الأَلْبَاب﴾[آل عمران: 190]. فبين سبحانه وتعالى أن من دلائل الخلق التفكر باختلاف الليل والنهار، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُون﴾[يونس: 6]. فهذا الاستدلال باختلاف الليل والنهار من ظلمة إلى نور فيه دلالة على تفرد الله بالخلق والتقدير ولهذا جاء مؤكداً بـ(إن)[1].

2- تصريف الله لهما وقدرته عليهما فيه دلالة على البعث. ولذلك جاء في القرآن التأكيد على أن هذا الاختلاف عائدٌ إلى تصريف الله له وقدرته عليه؛ لأنه هو الذي يملك كل شيء سبحانه وتعالى فقد جاء ذلك مقترناً بالبعث؛ لأن هذا الأمر لا يقدر عليه إلا الله وحده، حيث قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلاَفُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلاَ تَعْقِلُون﴾[المؤمنون: 80]. فهو مختص به والقادر عليه فمن تصرف في هذا الاختلاف هو القادر على البعث[2]. وكذلك لما في هذا الاختلاف من مشابهة في البعث؛ حيث إن النوم في الليل كالوفاة، واليقظة في الصباح كالبعث بعد الموت.

3- إنعام الله على الناس بهذا الاختلاف. حيث جعل في هذا الاختلاف منافع للناس، بجعل خاصية لكل آية من هاتين الآيتين عن الأخرى، ليساعد ذلك في تنظيم شؤون الناس في معايشهم بحيث أن الليل جعل للراحة والنهار للكسب والسعي في الأرض، فلا يمكن أن يقضي الإنسان حوائجه في النهار وكسب رزقه إذا لم يرتاح في الليل، وهذا من أسباب تقدم الليل على النهار في القرآن، والله اعلم.

([1]) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج11، ص97.
([2]) ابو حيان، **البحر المحيط**، ج7، ص570.

ولذلك هذه من النعم التي امتن الله بها على الناس وأن هذه النعمة تستوجب الشكر لله كما في قوله تعالى: (اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكثَرَ النَّاسِ لَا يَشكُرُونَ)[غافر:61]. فهذا الاختلاف بين الليل والنهار كان سبب لترتيب حياة الناس ومعايشهم، فهذا فضل من الله ومنه يجب أن نشكره عليه. قال الطبري:(جعل لكم أيها الناس الليل سكنا لتسكنوا فيه، فتهدئوا من التصرّف والاضطراب للمعاش، والأسباب التي كنتم تتصرفون فيها في نهاركم (وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا) يقول: وجعل النهار مبصرا من اضطرب فيه لمعاشه، وطلب حاجاته، نعمة منه بذلك عليكم)[1]. فكيف يكون حالنا لو لم يتفضل علينا الله بهذه النعمة من يستطيع أن يأتينا بها، ولذلك ذكرنا الله بهذه الحال بقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاء أَفَلاَ تَسْمَعُون * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلاَ تُبْصِرُون﴾[القصص: 71 - 72]. فصور الله لنا حالنا لو لم ينعم علينا بذلك، وكذلك لبيان حاجة الناس إلى ذلك، قال الشعراوي:(يُعدِّد الحق - تبارك وتعالى - نعمه على عبيده في شيئين يتعلقان بحركة الحياة وسكونها، فالحركة تأتي بالخير للناس، والسكون يأتي بالراحة للمتعَب من الحركة، والإنسان بطبيعته لا يستطيع أن يعطي ويتعب إلا بعد راحة، والذي يتحدَّى هذه الطبيعة فيسهر الليل ويعمل بالنهار لا بُدَّ أنْ ينقطع، وأن تُنهَك قواه فلا يستمر)[2]. ولهذا جاء التعقيب بأن هذا الأمر رحمة من الله تستحق الشكر حيث قال وتعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُون﴾[القصص: 73]. فهذه علامات خلقها الله لنا لكي نعتبر بها من خلال عظمة خلقها وتصريفه لها وقدرته على ذلك.

فمما سبق يتبن لنا أن الآيات الكونية المتغيرة، العبرة فيها هي بيان منفعتها للناس وحاجتهم إليها، وقدرته سبحانه على تصريفها بما يناسب حياة الناس ومعاشهم، كما هو في السحاب والرياح، فدلالات الاعتبار فيها تعود إلى حاجة الناس إليها ودورها في تنظيم حياتهم وهذا كله فضل من الله يحتاج منا إلى الشكر، ولا يكون ذلك إلا بعبادته وحده دون من سواه.

([1]) الطبري، **تفسير الطبري**، ج21، ص409.
([2]) الشعراوي، **تفسير الشعراوي**، ج18، ص11001.

المبحث الرابع

دلالة الاعتبار في سياق آيات الخلق

المطلب الأول: مفهوم الخلق

إن مفهوم الخلق يعتمد على المعاني التي يحملها لفظ الخلق حيث جاء متعدد المعاني وقد ذكر أهل اللغة معان عدة وهي على النحو التالي:

1- المراد بالخَلقُ هو خلق الله، وهذا هو الأصل، ولذلك يقال: الخلائق أو الخَلِيقَةُ الذين هم خلق الله؛ فالخَالِقُ والخَلاَّقُ هو الله عز وجل، وخَلَقَ الله الشيء يَخلُقه خَلقاً؛ أي: أحدثه بعد أن لم يكن، والخَلقُ هو المصدر لبقية الألفاظ التي تنتج عنه[1].

2- وقد جاء الخَلقُ بمعنى: التقدير؛ حيث يقال: خَلَقتُ الأديم؛ إذا قدرته قبل القطع منه لمَزادة أو خُفّ، قال زهير يمدح رجلاً:

ولأنتَ تَفري مَا خَلَقتَ وبعضُ القومِ يَخلُقُ ثُمَّ لَا يَفري

يقول: أنت إذا قدَّرت أمراً قطعته وأمضيته، وغيرك يقدر ما لا يقطع؛ لأنه ليس بماضي العزم[2].

3- وجاء بمعنى: الخَليقَةُ، وهي الطبيعة، يقال: له خلق حسن، والجمع الخلائِقُ التي يكون عليها الإنسان ويخلق عليها، ومنه قوله تعالى:(وانك لعلى خلق عظيم),[ن:4]. والخِلقَةُ بالكسر هي الفطرة ويقال رجل خَليقُ ومُختَلَقٌ أي تام الخَلق معتدل. وقولك: فلانٌ خَليقٌ بكذا؛ أي: جديرٌ به، ومنه أيضاً: الخُلقُ والخُلُقُ؛ وهي السجية التي خلق عليها؛ أي: فطرته[3].

4- ويراد بالخلق أيضاً القدم حيث يقال: خلق الثوب خَلُوقَة واخلولق وأخلَقَ وأخلقتُ الثوب: لبسته حتى بلي، وثوب خلق وملاءة خلقة[4]، وهذا مع الفتح للخاء واللام؛ حيث تعني: الثوب القديم والبالي.

5- وجاء الخلق بمعنى: الكذب، وخَلَق الكذب والإفك يخلُقه وتخَلَّقه واختَلَقَه؛ أي افتراه وابتدعه، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ﴾[العنكبوت: 17]. ولذلك يقال هذه قصيدة مَخلوقة؛ أي: منحولة إلى غير قائلها، ومنه قول العرب: حدثنا فلان بأحاديث الخَلق؛ أي: خرافاتهم من

([1]) ابن سيدة، **المحكم والمحيط الاعظم**، ج4، ص535.
([2]) ابن منظور، **لسان العرب**، ج10، ص87.
([3]) الجوهري، **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**، ج4، ص1472.
([4]) الزمخشري، **أساس البلاغة**، ج1، ص264.

الأحاديث المفتعلة[1].

6- وجاء بمعنى الطيب عند فتح الخاء وضم اللام كقولك: خَلُوق؛ وهو ضرب من الطيب ومنه أيضاً خَلَقتُهُ أي طليته بالخَلُوق طيبته بالطيب[2].

7- ومنه: الخلاق، وجاء بمعنى الحظ والنصيب؛ حيث يقال: لا خلاق له؛ أي: لا حظ له، ولا نصيب في الخير، ولا صلاح في الدين[3].

ومما سبق من معان يتضح لنا ان الخلق المقصود به أمرين هما: الإنشاء والتقدير؛ فلا يمكن من ابتداء أمر دون تقدير ما يريده الخالق، وأنها تطلق على كل صانع ولكن ليس كصنعة الله وخلقه، وأن هذه الصناعة دون صنعة الله.

([1]) ابن منظور، **لسان العرب**، ج10، ص88.
([2]) الجوهري، **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**، ج4، ص1472.
([3]) الزبيدي، **تاج العروس وجواهر القاموس**، ج25، ص257.

المطلب الثاني: دلالة الاعتبار في سياق خلق البشر

إن المحور الرئيسي الذي يدور حوله هذا المبحث هو دلالات الاعتبار في خلق الإنسان كما قال تعالى: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾[الذاريات: 21]. فهذه دعوة من الله سبحانه إلى الناس كافة أن يتأملوا يتدبروا في أنفسهم، من خلال النظر إلى هذا الإتقان العجيب في تكوين الإنسان، ولكن يجب أن يكون هذا النظر نظر بصيرةٍ وليس نظرٌ مجرد، ولذلك كان الطلب في هذه الآية بالتبصر، وهو زيادة الإمعان في النظر والتأمل والتدقيق لحصول الاعتبار من هذا النظر، أي إن لكم في أنفسكم أيضاً آيات وعبر لكم تدلكم على وحدانية خالقكم وأنه لا إله لكم سواه، إذ لا شيء يقدر على أن يخلق مثل خلقه، أفلا تنظرون وتتفكرون لتعتبروا[1]. فلذلك في هذا المبحث سنتناول مراحل خلق البشر في القرآن الكريم، وبيان الدلالات التي تدل على الاعتبار في كل مرحلةٍ من هذه المراحل، حيث إنه قد جاءت هذه المراحل على مرحلتين أو على جزئين للخلق، وكل مرحلةٍ من هذه المراحل ذكرت في عدة مواطن في القرآن الكريم في سياقات مختلفة، وكذلك بيان هذه الدلالات من خلال السياق الذي جاءت فيه بحيث إن كل مرحلة تحمل في سياقها دلالات للاعتبار، وهي على النحو الآتي:

1- مرحلة بداية الخلق
2- مرحلة خلق أطوار الإنسان

وكل هذه المراحل جاءت للدلالة على أمر واحد رئيسي تدل عليه كل الدلالات الأخرى لخلق الإنسان في جميع سياقاتها، وهي التأكيد على وحدانية الله، وأنه هو الخالق مؤكدةً على قضية البعث بعد الموت، وأنه كما بدء خلقه من طين، ومن ثم تخلقه في بطن أمه، فيه دلالة على قدرة الله على إعادة هذا الخلق بعد الموت، وقد جمعت هاتين المرحلتين في موطن واحد وفي سياق واحد؛ وهو سياق البعث يوم القيامة وما يكون فيه من حساب فناسب هذا السياق أن تذكر جميع هذه المراحل للتأكيد عليه، حيث قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاء﴾[الحج: 5]. فكان من أهم دلالات ذكر مراحل الخلق: التأكيد على البعث وأن الإنسان سيبعث بعد الموت وسيحاسب على ما فعل في الدنيا. وكأن الخطاب يقول لهم إن الذي بدأ خلقكم من تراب ثم جعل تناسل الخلق من نطفة وبعدها من

([1]) الطبري، **تفسير الطبري**. ج22، ص420.

أطوار مختلفة في الخلق، أيعجزه أن يعيد خلقكم مرة أخرى[1]. فكان التأكيد بذكر هذه المراحل مجتمعة فيه بيان للهدف الرئيسي من الاستدلال ببداية الخلق، وهو المحاجة على إنكار المشركين للبعث بعد الموت. لكن هناك دلالات للاعتبار في كل مرحلة من هذه المراحل، سنتناولها عند ذكر هذه المراحل:

أولاً: بداية الخلق

إن دلالة الخلق في ذكر سياق النشأة الأولى للخلق نجد أنها جاءت بصيغة واحدة في جميع تلك السياقات، وهي صيغة الماضي وهذه الدلالة إتيانها بهذه الصيغة هو المناسب لسياق بدء الخلق؛ حيث أن هذه النشأة تمت بتلك الطريقة أو بتلك الخلقة التي ذكرها الله لنا في القرآن ولن تأتي أو لن تتكرر تلك الخلقة أو النشأة مرة أخرى لأنها كانت خاصة في بدأ الخلق ولذلك ناسب ذكرها بهذه الصيغة. أما عن بداية خلق الإنسان؛ فله دلالات للاعتبار سيوضحها السياق، وهي على النحو التالي:

1- الرد على الكافرين، ودحض حجتهم في إنكار البعث يوم القيامة. وجاء ذلك من خلال الحديث عن بداية الخلق، حيث وجدت أن السياقات التي ذكرت الخلق تتكلم عن الكافرين وإنكارهم وتكذيبهم للبعث، حيث يكون تذكيرهم ومحاجتهم ببداية خلقهم، رداً على هذا التكذيب، حيث قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾[الروم: 20]. فنجد أنه جاء ذكر الخلق تعقيباً لهذا الأنكار، حيث كان السياق قبلها يتكلم عن الكافرين وتكذيبهم لآيات الله وللبعث يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاء الْآخِرَةِ فَأُوْلَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾[الروم: 16]. كما أن هذه السياقات جاء فيها ذكر التراب، فهذا فيه زيادة محاجة لهم، لأن إنكارهم وتكذيبهم للبعث وهو خروج الناس من التراب، كما ناسب السياق ذكر التراب؛ في بيان المنزلة والمكانة التي يستحقونها، ولمناسبة سياق الآيات الذي يتكلم عن إنكار خروج الناس من التراب بعد موتهم. لأن العلم بالخلق الأول من شأنه أن يصرف الناس عن الإنكار للخلق الثاني[2]. وفي سياق الجحود والإنكار كذلك من الكافرين، قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ

([1]) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج17، ص196.
([2]) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج15، ص322.

يَجْحَدُونَ﴾[غافر: 63]. فناسب هذا الجحود كذلك الاتيان بذكر التراب، عند تذكيرهم بأصل خلقتهم ومحاجتهم لبيان مكانتهم أيضاً، حيث قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾[غافر: 67]. وكأن هذه الآيات تذكرهم بأصل خلقتهم رداً على إنكارهم وتكذيبهم.

2- النهي عن التكبر عموما، وعن قبول الحق خصوصاً. لأنه من اسباب الابتعاد عن الحق والغرور المؤدي الى معصية الله. ولهذا كان رد الرجل الصالح على من تكبر عند رؤية جنته وإنكاره ليوم القيامة بتذكيره ببداية خلقة من تراب، كما في قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾[الكهف:35 - 36]. قال الشنقيطي:(هذا من جهل الكفار واغترارهم بمتاع الحياة الدنيا)[1]. فناسب كذلك ذكر التراب في السياق، لبيان حال هذا المتكبر ولتقليل من شأنه حيث قال تعالى: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً﴾[الكهف: 37]. فكل هذه السياقات التي ذكرت الخلق وكانت تصف حال الكافرين وعنادهم وتكبرهم عن آيات الله وإنكارهم ليوم القيامة وأن الناس سيبعثون في هذا اليوم فيه دلالة يجب الاعتبار بها وهي أن هؤلاء الكفار ليس لهم وزن عند الله، وأن حجتهم ضعيفةٌ، ويجب علينا حين التعامل معهم أن لا نقيم لهم وزناً أيضاً، ولا نقدمهم على المسلمين ويكون حسن تعاملنا معهم من باب دعوتهم إلى الدخول في الإسلام، وليس حباً لهم أو إعجاباً بحالهم.

3- بيان قدرة في الخالق، وعظم صنعته، لترسيخ العقيدة والإيمان بالله. حيث أن هذا التكوين العجيب الذي يخاطب العقول، ويحرك القلوب إلى الإيمان بالله وقدرته سبحانه وتعالى، فيه ترسيخ للعقيدة حيث كان الخطاب الإلهي دقيقاً في وصف بدأ هذا الخلق، وبيان مكونه الذي نشأ منه؛ لأن السياقات التي جاء فيها إما بيان للخلق وحث المؤمنون على حمد الخالق وعبادته كما في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم

([1]) الشنقيطي، **أضواء البيان**، ج3، ص273.

يَعْدِلُون﴾[الأنعام: 1]. حيث جاء الوصف لخلق الإنسان بعد هذه المقدمة بالطين ولم يكن بالتراب كما مر معنا حيث قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾[الأنعام:2]. فكان البيان فيه أكثر تفصيل للخلقة الأولى فناسب السياق أن يكون في هذا المقام زيادة في البيان وذلك لأن المرحلة الأولى التراب ثم إذا مزج بالماء أصبح طيناً فعند سياق الخلق يكون الأفضل البيان للمكون الأساسي لخلق الإنسان، وهذا الإيضاح هو الأنسب في السياق الذي فيه حث على الأيمان وترسيخ للعقيدة، وكذلك أن الخطاب موجه إلى النبي صلى الله عليه وسلم فناسب هذا السياق ذكر النشأة بشيء من الدقة ولأهمية الفئة التي وجه إليها الخطاب بعكس أولئك الذين أنكروا وكذبوا وجحدوا ما جاءهم من آيات والله أعلم. وهذا فيه دلالة على عظم خلق الإنسان وأنه إذا عرف حقيقة خلقه زاد إيمانه بربه، حيث أن من شأن هذا كله أن يحرك قلبه إلى اليقين بلقاء ربه من خلال تدبره لبداية خلقه من هذا المزيج العجيب[1]. الذي من خلاله يعيدنا إلى المحور الرئيسي أو الدلالة الرئيسية من ذكر بداية الخلق في القرآن، وهي التأكيد على البعث، وهذه المرة من خلال سياق الخلق الذي ناسب التوضيح فيه أكثر للمرحلة التالية بعد التراب، كما أن فيه دلالة على آيات الاعتبار بعجيب خلق الله، وكيف كانت هذه النشأة[2]. فيجب الاعتبار بعظم قدرة الله على الخلق والتنبيه إلى عجيب صنعته وكيف أنه أخرج من هذه الحالة المهينة بهذا الخلق القويم[3]. مما يدفع إلى الإيمان والخضوع لله.

ثانياً: أطوار خلق الإنسان

إن ذكر الأطوار التي مر بها خلق الإنسان في أكثر من موطن من القرآن الكريم لها دلالات عدة، تدفعنا إلى الاعتبار بها، حيث إن تصوير تكوّن هذا الإنسان في بطن أمه ذلك التصوير الدقيق الذي لا يمكن أن تُكشف ماهيته لولا هذا السرد القرآني العجيب، وأن فيه دلالة على تذكّر عظمة الله مما ينشأ عنه في القلب توقير وتعظيم لله كما في قوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾[نوح: 13 - 14]. لأن في تذكر الإنسان لخلقه وتبدل حاله من حال إلى حال يجعله يخاف

([1]) قطب، **في ظلال القرآن**، ج2، ص1031.
([2]) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج7، ص129-130.
([3]) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج14، ص42.

من عظمة هذا الخالق[1]. مما يدفعه إلى الإيمان به لن هذه الحال أو هذه الأطوار موجبة للأيمان به[2]، فلذلك التقصير في توقير وتعظيم والإيمان بمن هذا شئنه في القدرة القاهرة والإحسان التام في الخلق يكاد لا يصدر عن عاقل[3]. ولهذا نجد أن ذكر هذه الأطوار جميعها بتسلسل في القرآن جاء في موطنين ولكل موطن دلالة تختلف عن الأخرى حيث جاء في سورة الحج للرد على المشككين ودفع الشك عن أن الله قادرٌ على بعث الناس بعد الموت يوم القيامة كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾[الحج: 5]. ولو تأملنا هذه الآيات نجد أن الله سبحانه وتعالى ذكر هذه الأطوار مرتبطةً بالتراب؛ لأن المخاطبين والذين يرد عليهم هم أولئك الكافرين المشككين، فكان مناسباً لحالهم ذكر هذه الأطوار مرتبطةً بالتراب، وهذا فيه دلالة على أن الذي خلق الإنسان بهذه الأطوار العجيبة إلى أن يتوفاه في أحوال جسمه وعقله وإدراكه فإنه هو قادر على إعادته بعد فناءه[4]. فكيف ينكر ويشك في البعث ولا يعتبر بتسلسل هذه الأطوار، فهذا يجعله يعود عن شكه وكفره.

أما الموطن الآخر فهو في سورة المؤمنون، وكان لبيان عظمة الله وقدرته، وكان خطاباً موجهاً إلى المؤمنين حيث قال تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[المؤمنون: 14]. فكان التعقيب بحسن الخلق وقبلها كانت البداية بذكر الطين لبيان الدقة ولمناسبة السياق حيث كان الخطاب موجهاً للمؤمنين كما أسلفنا فهذا فيه دلالة على أن هذه الأطوار تكون خاتمتها حسنه إذا تمثلت بالصفات التي ذكرت في السورة فناسب ذكر الحسن للصورة الخارجية مع ذكر مقومات الحسن الداخلي الذي ينتج عن الاتصاف بهذه الصفات التي ذكرها السياق. وكما أن هذه الأطوار إذا تأملناها تكون سبب في

([1]) الطبري، **تفسير الطبري**، ج23، ص635.
([2]) الزمخشري، **تفسير الكشاف**، ج4، ص620.
([3]) ابو السعود، **إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم**، ج9، ص38.
([4]) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج17، ص196.

الإيمان فناسب ذكرها في سياق دلائل الإيمان حيث أن السياق يوضح هذه الدلائل في الأنفس والآفاق، وكأن عرض تلك الأطوار بهذا التتابع الدقيق فيه إشارة إلى أن الذي يسير على نهج المؤمنين الذي بينه سبحانه في هذا السياق، سيصل إلى بلوغ أحسن الدرجات عند الله، كما نتج عن هذا التتابع حُسن الخَلق[1].

أما لو نظرنا إلى بعض أجزاء هذه الأطوار نجد أنها ذكرت في القرآن في أكثر من موطن مفردة دون بقية هذه الأطوار، فهذا لا بد أن له دلالة سياقية جعلت ذكره دون بقية الأطوار له مناسبة في هذا السياق، تدعو إلى الاعتبار بإتيانها مفردة حيث نجد أن القرآن ذكر النطفة لوحدها في سياقات عدة منها قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾[النحل: 4]. وهذا كان في سياق ذكر نعم الله وبيان أن الإنسان على كل ما يقدم له من نعم يضل يخاصم في أوامر الله ويجادل فيها، فكان ذكر هذه النطفة مع المخاصمة فيه دلالة على احتقار هذه المخاصمة، وكأن الخطاب فيه تساؤل: كيف أيها الإنسان تخاصم وتعاند وأنت أصلك من هذه النطفة التي لو رجعنا إلى معناها في اللغة نجد أنها تعني القطرة من الماء[2]، وقيل: هي القطرة التي لم تصفُ بعد، ولذلك يقال نطفة كدراء[3]. أي: أنك أيها الإنسان كانت بداية تكوينك من قطرة كقطرة الماء، وأن الله هو الذي أنشأك من ماء مهين وأخرجك إلى ضياء الدنيا وغذّاك ورزقك ونماك حتى اكتمل خلقك كفرت وجحدت أنعمه عليك، بل فوق هذا كله أظهرت هذه الخصومة وبينتها[4]، بل وزدت عليها عبادتك لغيره، وتكبرك على أوامره. ولذلك نجد أن القرآن عند ذكر حال الجحود من الإنسان يذكر هذا الطور وكأنه يذكّره بقدرة كما في قوله تعالى: ﴿قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ * مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾[عبس:17 - 19]. فهذا فيه دلالة على أن الإنسان يجب أن يعتبر بتكوينه من هذا الضعف، وأن المتفضل عليه في كل ما هو فيه هو الله وحدة، وإلا فإن أصل خلقته لا يعطيه كل هذه المقومات التي يتمتع بها، فيجب عليه الاعتبار في ذلك والانصياع التام لله سبحانه وتعالى.

ولكن بعد ذكر هذه الحقيقة لهذا التكوين نجد أن القرآن ينقلنا إلى حقيقة أخرى والى تنبيه آخر إلى أن ليس أن يكون تكوينك من هذه النطفة الصغيرة المهينة وحسب، بل وإن هذه النطفة التي

([1]) قطب، **في ظلال القرآن**,ج4,ص2452.
([2]) ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**,ج5,ص440.
([3]) ابن جني، **المخصص**,ج5,ص37.
([4]) الطبري، **تفسير الطبري**,ج17,ص167.

تخرج منك لتكون نواة لإنسان مكتمل الخلقة، ليس أنت من أتى بها أو أنتجها، بل الله هو الذي خلقها، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُون * أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُون﴾[الواقعة: 58 - 59]. يا لله كم

نحن ضعفاء أمام قدرة الله وأمام عظمة الله، أفلا يجعلنا كل هذا التذكر لحالنا ونشأتنا أن نعتبر بهذه النشأة، وأن نقبل إلى الله بالعبادة دون غيره، وأن يرسخ ذلك فينا الإيمان واليقين، ولذلك كان التعقيب على هذا بالدعوة إلى الاعتبار بناءً على تذكر هذه النشأة سواءً في بداية الخلق أو في تنشئته في بطن أمه، حيث قال تعالى:(وَلَقَد عَلِمتُمُ النَّشأَةَ الأُولَى فَلَولَا تَذَكَّرُونَ). فهذا فيه دلالة على إقامة الحجة على الكافرين بعدم الجحود وإنكار إعادة الخلق مرة أخرى إذا علموا بنشأتهم الأولى[1]. فيجب على من علم ذلك الاعتبار به وعدم جحود قدرة الله على إعادته.

ومن كل ما سبق يجب الاعتبار بأن في الخلق دلالة على ضعف المخلوق أمام خالقه، وأنه محتاج إليه، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُون﴾[فُصِّلَت: 15].

فيكف أمام هذه القوة الشديدة يكون الجحود والنكران. وهذا يبين لنا أن كل هذه الآيات التي جاءت في الخلق إنما جاءت لدعوتنا إلى الاعتبار، وعلمنا بخلقنا يدفعنا إلى الإيمان وطاعة الرحمن، حيث إن هذا الخلق وهذه الدقة فيه بيان كل ذلك حتى لا يكون هناك حجة لأحد، وليعلم أنه لم يخلق عبثاً، بل وراءه حساب وعقاب، فلا بد أن يعمل لما خلق له، فقد قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُون﴾[المؤمنون: 115].

(1) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**،ج27،ص319.

المطلب الثالث: دلالة الاعتبار في سياق خلق غير البشر

إنا لو نظرنا من حولنا نجد أنواع مختلفة من المخلوقات منها ما علمناها ومنها مالم. ولنا في كل هذا عبرة وعظه فتسخيرها للإنسان فيها دعوة الى التساؤل من سخرها، ولنا في تكوينها وتشكيلها عبرة من صورها، ولنا في حركتها عبرة من الهمها، ولنا في قوتها وضخامتها عبرة بمن قواها، كل هذه التساؤلات تدلنا الى أمر واحد هو أن هناك خالق عظيم هو من خلقها وجعلها منوعةً وأمدها بكل هذه الاختلافات لتكون شاهداً على عظم خالقها، ولذلك كان جواب موسى لفرعون عندما سأله عن ربه؟ رد عليه بأنه هو من خلق كل ما تراه من حولك وهداه الى فعل ما يناسب خلقه كما بين ذلك سبحانه وتعالى في قوله: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾[طه: 49- 50]. ليس هناك ابلغ من هذا الجواب أنظر حولك أيه الانسان، من رفع السماء بلا عمد، ومن بسط الأرض ومهد، ونصب الجبال وجعلها وتد، من خلق البحار، وأجرى الأنهار، وأنزل الأمطار، ومن هيء سبل العيش للوحوش في قفارها، والحيتان في بحارها، والطيور في أكنانها، أنه الله الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى. فإن له في كل شيء عبرة تدعو الى الاعتبار، جعل لها دلالات يعتبر بها، ومن هذه الدلالات ما جاء في خلق غير البشر، حيث أني وجدت أن القرآن الكريم في دعوته الناس إلى الاعتبار في الخلق عامةً قسم هذه الدعوة أو طلب التفكر في هذا الخلق على قسمين هما التفكر في خلق الأنفس، والثاني في التفكر في خلق ما يحيط بهذه الأنفس من جميع المخلوقات. أي أننا بعد أن بينا دلالات الاعتبار في خلق الأنفس سنبين دلالات الاعتبار في بقية هذه المخلوقات حيث تنوعت دلالاتها الاعتبار فيها، ولكن قبل الحديث عن هذه الدلالات أود أن أبين أنني قد وجدت أثناء البحث في سياق خلق غير البشر أن أكثر الذي تم لفت الأنظار إليه والتأمل فيه هو خلق السموات والأرض، وذلك لعظم هذا الخلق وأن كل بقية المخلوقات تعيش بين هاتين الآيتين العظيمتين، وهذا قد بينا دلالته في المبحث السابق، كما أن من المناسب بعد ذكرهما أن يكون الحديث عن خلق البشر وغير البشر زيادة في الاعتبار، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ * وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[الجاثية: 3 - 4]. فكأن الاعتبار بعد الآيات الكونية قسم إلى قسمين هما خلق الناس وخلق بقية الدواب. وفي هذا بيان إلى دقة القرآن في التعبير حيث لم يقيد هذه الدابة، بل جعلها مطلقة؛ أي: كل دابة بين السماوات والأرض فيها آيات ودلائل لمن يقر

بحقائق الأشياء ويعلم صحتها، حيث إن المعاند لو قدمت له كل ما يريد من حقائق لن يؤمن بما جئته به[1].

ومن منطلق هذه الآية سيكون الحديث عن الدلالات التي يحملها خلق هذه الدواب، دون غيرها من المخلوقات لأن هذه الدواب معلومة للناس مُشاهدةٌ لهم حيث أن منها ما يعيش بينهم ومنها ما يشاهدونه حولهم ففي ذكرها وبيان خلقها تكون العبرة أنفع ويكون الاعتبار اقوى، ومن هذا المنطلق قسمت الحديث عنها الى قسمين هما على النحو التالي:

1- خلق الأنعام
2- خلق بقية الدواب

وذلك أنني وجدت القرآن الكريم يتناول خلقهما بسياقين مختلفين؛ فسياق الأنعام وجدت أنه يكون في التفضل والإنعام على الناس، أما بقية الدواب فكان سياقها في المحاجة والتحدي والإنكار، فناسب دراسة كل سياق على حدة.

أولاً: خلق الأنعام

سبق وأن بينا في الآيات الكونية أن هذا الكون خلق بكل ما فيه لمساعدة الإنسان على العيش وتهيئة السبل له وكذلك في بعض المخلوقات التي وجدت على هذه الأرض ومنها هذه الأنعام. ولكن قبل أن أشرع في الحديث عن دلالات خلق الأنعام أود أن ابين الفرق بين الأنعام وبقية الدواب. حيث أن الأنعام هي الدواب التي خلقها الله لنتنعم بها ونستنفع منها، فكل ما ينتفع منه الانسان يسمى أنعام كما قال تعالى: ﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُون * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُون * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيم * وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُون﴾[النحل: 5 - 8]. وفي هذه الآيات دلالة على تفضل الله على الانسان وأنه خلق له من الدواب ما ينفعه وسماه أنعاماً. فكل أنعام دابه وليس كل دابةٍ أنعامٌ. وهذا فيه أيضاً دلالة على أن هذه الأنعام لو لم يسخرها الله له لما استطاع الاستمرار في العيش، ولهذا سماها الله أنعاماً؛ لبيان أنها خلقت نعمة من الله يجب شكره عليها وحمده على تسخيرها، كما أن في خلقها بياناً لعظمة خلق الله، وكيف أنه سبحانه جعلها متعددة المنافع؛ فمنها نحصل على الدفء، ومنها نحصل على الأكل والشرب، وهذا فيه دعوة للاعتبار والتأمل في هذه القدرة العظيمة للخالق سبحانه وتعالى وقد

([1]) الطبري، **تفسير الطبري**، ج22، ص59.

جاءت هذه الدعوة صريحة إلى أخذ العبرة من ذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾[النحل: 66]. فطلب الاعتبار بالعبرة التي جاء فيها الله بخلق الأنعام دلالة على أن ما تنتجه هذه الأنعام يحتاج إلى إمعان نظر وتأمل، وهذا مثال لذلك؛ وهو خروج اللبن من بين الدم والفرث فيه عبرة بأن لا يستطيع فعل ذلك إلا خالق عظيم يستحق أن يعبد ويشكر. وكأنه قال إنكم عندما تعرفون قدرة الله وأنه لا يعجزه شيء، يدفعكم ذلك إلى الإيمان به والعمل على مرضاته[1]. حيث إن سياق الآيات جاء للدعوة إلى الإيمان من خلال ذكر صفات المؤمنين وأنهم يعتبرون بهذه النعم التي تفضل الله بها عليهم. ولذلك نجد أنه جاء التأكيد على ذلك في موطن آخر ولكن بزيادة أمور أخرى تدل على التفضل والإنعام حيث قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾[المؤمنون: 21]. حيث أن بيان تعدد النعم التي جمعها سبحانه في مخلوق واحد فيها بيان لمنة الله وتفضله على عبادة، ودلالة للاعتبار لكي بعظمة صانعها[2]. وهذا كله للدلالة على وحدانية الله وألوهيته. كما أن في ذكر الأنعام تشبيهاً لحال الكفار؛ حيث ورد ذلك في سياقين: أحدهما لبيان غفلة الكفار عن سماع ما جاءهم من عند ربهم وعدم استفادتهم من الحق، حيث قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[الأعراف: 179].

فهذا التشبيه فيه بيان أن هؤلاء الكفار في بعدهم عن فهم آيات الله والاستفادة منها حالهم كحال هذه البهائم التي ليس لها قلوب وعقول تفقه بها وتفكر بل هم أشد ضلالاً حيث أن هذه البهائم تميز بين الضار والنافع مع أنها لا تفقه شيئاً، أما هؤلاء الكفار لا يميزون بين الخير والشر[3]. فكان مصيرهم النار لأنهم لم ينظروا إلى ما خلق الله نظر اعتبار، ولم يسمعوا ما يتلى عليهم سماع تدبر، فكأنهم عدموا هذه القلوب وهذه الأعين وهذه الآذان[4]. فكان بيان حالهم في الآخرة من بيان حالهم في الدنيا وأنه هو الذي تسبب لهم بهذه النهاية حيث قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ

([1]) الطبري، **تفسير الطبري**، ج19، ص24.
([2]) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج14، ص199.
([3]) الطبري، **تفسير الطبري**، ج13، ص281.
([4]) الزمخشري، **تفسير الكشاف**، ج2، ص169.

تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُم﴾[محمد: 12]. أي أنهم ليس لهم دور في هذه الدنيا إلا الأكل والشرب والتمتع بملذات الحياة، وأن حظهم منها كحظ بقية البهائم.

فمما سبق يتبين لنا أن الله سبحانه وتعالى اختار الأنعام لتشبيه حال الكفار دون بقية الدواب لقربها منهم وانتفاعهم بها وإدراكهم لماهيتها.

ثانياً: خلق بقية المخلوقات

إن في هذا الكون مخلوقات كثيرة ومختلفة، وقد ذكرت في القرآن الكريم بسياقات عدة تبين لنا قدرة الله وأسراره التي أودعها في مخلوقات، كما تبين لنا أيضاً تحديه لمن عبدوا وأشركوا به غيره بأن يأتي هذا الذي عبد من دونه أو يخلق بمثل ذلك الخلق، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾[فاطر: 40]. بل زاد في التحدي بأن حدد لهم مخلوقاً ضعيفاً لا وزن له في هذه الدنيا وهو الذباب؛ حيث قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾[الحج: 73]. فهذا التحدي في خلق الصغير الحقير وعدم قدرة ما يعبدون إلى فعل ذلك فيه دلالة على أن خلقهم لغيره أصعب، فإن عجزهم عند أحقر هذه المخلوقات يدل على حقارة ما يعبدون من دون الله، بل إن التحدي ذهب إلى أبعد من ذلك الى عدم قدرة ما يعبدون أن يسترد ما يؤخذ منه من قبل هذا المخلوق الضعيف الحقير في نظرهم. وهذا من أسلوب القرآن العجيب عند اختياره هذا المخلوق الصغير على غيره من المخلوقات ليلقي في الحس الضعف أكثر مما يلقيه العجز عن خلق بقية المخلوقات[1]. ومن هذا يتبين لنا أن من دلالات الاعتبار في خلق غير البشر بيان ضعف غير الله أن يخلق كخلقه. كما أن في نظرنا للطيور وهي ترتفع في كبد السماء دعوة إلى الاعتبار بقدرة من جعلها معلقة فيها دون أن تقع وعجز غيرها من المخلوقات بأن تفعل فعلها مع أنها أقوى منها وعلى رأس هذه المخلوقات هو الإنسان الذي أعطي كل هذه الإمكانيات. وما عرض ذلك لنا إلا لبيان قدرته سبحانه وضعفنا، ولكي تكون شاهدتاً فوق رؤوسنا، ولكي نتذكر هذه القدرة كلما رأيناها،

([1]) قطب، **في ظلال القرآن**، ج4، ص2444.

ولذلك جاءت الدعوة للاعتبار بحال هذه الطيور بالنظر إليها، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِير﴾[المُلك: 19]. فإن هذا النظر يبين لنا قدرة الله في تصريف هذه المخلوقات وأن كل شيء في هذا الكون يسير وفق قدرته وطوع أمره[1].

فسبحان من جعل في كل آية عبرة وفي كل خلق قدرة، تدفع أصحاب العقول الى الاعتبار بها اعتباراً يقرب الى الله ويرسخ الإيمان بعظمة الله وأنه خالق البارئ المصور. حيث أنه يكفينا بالنظر الى ما حولنا من آيات في الكون وآيات في الخلق بأن نعتبر بأن ليس هناك اله الا الله هو المدبر لهذا الكون المسير لشؤونه نسأل الله أن ينير عقولنا للاعتبار بها وأن يوفقنا للإيمان بخالقها.

([1]) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج29، ص37.

الخاتمة

الحمد لله الذي وفقنا للبحث في كتابه العزيز والنهل من معينه الصافي حيث عشت معه أياماً ولياليَ نيرة مليئة بالتدبر والتأمل، استفدت منها أننا كل ما تدبرنا في هذا الكتاب العزيز نجد من المعاني ما هو جديد، لكن يجب أن يكون هذا التدبر بقلب سليم صافي لكي يُنهل من هذا المعين الصافي، فلا يمكن لقلب ران عليه السواد، وجفاه البعد عن الله أن يصل الى معانيه السامية فو الله إن تدبري له في رمضان يختلف عن بقية الإيام وتدبره أعقاب الصلوات ليس كتدبره بعد غيرها من الأوقات، لكن أسأل الله أن يكون ما كتبته حجةً لي وليس علي كما آمل أن يكون فيه النفع والتوفيق لي ولبقية المسلمين.

وقد خلصت بعد الانتهاء منه بعدة نتائج تحتاج الى عدة توصيات هي على النحو التالي:

أولاً: النتائج

1. أن القرآن يحمل من المعاني ما يدفع الى التدبر حيث أن كل ما تدبرت فيه تجد معنى غير الذي توصلت اليه.
2. أن الاعتبار جاء في القرآن بعدة استعمالات هي بيان العبرة والاعتبار بها، تفسير الرؤيا، وعبور الطريق، والدليل.
3. أن لدلالة الاعتبار في القرآن الفاظاً مقاربةً لها في الدلالة وتدل عليها.
4. أن طلب الاعتبار في القرآن، جاء في أربعة سياقات هي القصص، والقتال، والآيات الكونية، والخلق.
5. أن تنوع دلالات الاعتبار في القرآن يهدف الى دعوة الناس الى عبادة الله وحدة، من خلال الاعتبار بهذه الدلالات.
6. إن التدبر في كتاب الله يدفع الإنسان الى الإيمان بالله والأقبال عليه بالطاعة.

ثانياً: التوصيات

1. أن لا نمر على كتاب الله مرور الكرام بل أن نتدبر ونتأمل في آياته ففيه نجاتنا وفلاحنا في الدارين.
2. يجب علينا الاعتبار بما يمر بنا في القرآن من دلالات تدعو اليه وأن تكون لنا العبرة وليس بنا.
3. أوصي بأن يستكمل البحث في هذه الدراسة بشكل أوسع حيث وجدت أنها تحتاج الى مزيد من البحث.
4. أوصي كل من أراد أن يفتح الله عليه ويستفيد من كتابه العزيز أن يقبل على الله بقلب سليم، ويكثر من الطاعات ويبتعد عن المحرمات، فكلما توجهنا الى الله بقلوبنا فتح الله على عقولنا للتفكر والتدبر في كتابه الكريم.

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الانبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المصادر والمراجع

ابن سيدة، أبو الحسن علي بن اسماعيل (ت 458هـ)، **المحكم والمحيط الأعظم**، ط1، م11، (تحقيق عبد الحميد هنداوي)، دار الكتب العلمية، بيروت، (2000).

ابن عادل، أبو حفص عمر بن علي الحنبلي الدمشقي (ت 775هـ)، **اللباب في علوم الكتاب**، ط1، م20، (تحقيق الشيخ عادل أحمد والشيخ علي محمد معوض)، دار الكتب العلمية، بيروت، 1419 هـ / 1998م.

ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد التونسي(ت 1393هـ)، **التحرير والتنوير "تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد"**، م30، الدار التونسية للنشر، تونس، (1984).

ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب الأندلسي(ت 542هـ)، **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، ط 1، م5، (تحقيق: عبد السلام عبد الشافي)، دار الكتب العلمية، لبنان، (1993).

أبن فارس، أبو الحسن احمد بن فارس بن زكريا (ت 395هـ)، **معجم مقاييس اللغة**، 6م، (تحقيق عبدالسلام هارون)، الأردن: دار الفكر.

ابن كثير، أبوالفداء اسماعيل بن عمر (ت 774هـ)، **تفسير القرآن العظيم**، ط1، م8، (تحقيق محمد حسين شمس الدين)، دار الكتب العلمية، بيروت، (1419هـ).

ابن منظور، محمد بن مكرم الأفريقي المصري (ت 711هـ)، **لسان العرب**، ط1، م15، بيروت: دار صادر.

ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي ابو الفضل (ت 711هـ)، **لسان العرب**، ط 3، م15، دار صادر، بيروت، (1414هـ).

ابو البقاء، ايوب بن موسى الحسيني (ت 1094هـ)، **كتاب الكليات**، م1، (تحقيق عدنان درويش و محمد المصري)، مؤسسة الرسالة، بيروت، (1998).

أبو السعود، محمد بن محمد العمادي (ت 982هـ)، **إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم**، م9، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

ابو العباس الفاسي، احمد بن محمد بن المهدي (ت 1224هـ)، **البحر المديد**، ط2، م8، دار الكتب العلمية، بيروت، (2013).

أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف بن علي(ت 745هـ)، **البحر المحيط في التفسير**، م8، (تحقيق صدقي محمد جميل)، دار الفكر، (1420هـ).

أبو حيان التوحيدي، علي بن محمد بن العباس (ت 400هـ)، **المقابسات**، ط 2، م1، (تحقيق حسن السندوبي)، دار سعاد الصباح، الكويت، (1992).

الأزهري، أبو منصور محمد بن احمد (ت 370هـ)، **تهذيب اللغة**، ط1، م8، (تحقيق محمد عوض مرعب)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (2001).

الألوسي، شهاب الدين محمود بن عبدالله الحسيني (ت 1270هـ)، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، ط1، م16، تحقيق علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، (1415هـ).

البخاري، ابو عبدالله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة (ت 256هـ)، **الجامع المسند الصحيح**، ط1، 9م، (تحقيق محمد زهير الناصر)، دار طوق النجاة، القاهرة، (1422هـ).

البغدادي، أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي (ت 356هـ)، **الأمالي في لغة العرب**، م23، دار الكتب العلمية.

البقاعي، برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر(ت 885هـ)، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، م8، (تحقيق عبدالرزاق المهدي)، دار الكتب العلمية، بيروت، (1995).

البيومي، الدكتور محمد رجب (ت 2011م)، **البيان القرآني**، ط3، م1، مجمع البحوث الإسلامية، دار النصر، القاهرة، مصر، (1971).

الجوهري، إسماعيل بن حماد (ت 393هـ)، **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**، ط 4، م6، دار العلم للملايين، بيروت، (1990).

الخطابي، ابو سليمان حمد بن ابراهيم (ت 388هـ)، **ثلاث رسائل في اعجاز القران**، ط 5، م1، (تحقيق محمد خلف الله و محمد زغلول) دار المعارف، بيروت، (2008).

الداني، أبو عمر عثمان بن سعيد بن عثمان (ت 444هـ)، **التيسير في القراءات السبع**، ط 2، م1، (تحقيق: اوتو تريزل)، دار الكتاب العربي، بيروت، (1984).

الدمياطي، شهاب الدين احمد بن محمد بن عبدالغني، **إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر**، ط 1، م1، (تحقيق أنس مهرة)، دار الكتب العلمية، لبنان، (1998).

الذهبي، شمس الدين أبوعبد الله محمد بن أحمد(ت 748هـ)، **سير أعلام النبلاء**، ط3، م25، (تحقيق مجموعة بأشراف شعيب الأرناؤوط)، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، (1985).

الرازي، زين الدين ابو عبدالله محمد بن ابي بكر(ت 666هـ)، **مختار الصحاح**، ط 5، م1، (تحقيق يوسف الشيخ محمد)، المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت،(1999).

الراغب الاصفهاني، الحسين بن محمد بن الفضل (ت 502)، **المفردات في غريب القران**، ط1، 1م، (تحقيق صفوان عدنان الداودي)، دار القلم، الدار الشامية، دمشق، سوريا، (1412هـ).

ربيعة، لبيد (ت 41هـ)، **ديوان لبيد بن ربيعة العامري**، ط1، م1، (حققه واعتنى به حمدو طماس)، دار المعرفة، بيروت، (2004).

رشيد، محمد رشيد بن علي رضا (ت 1354هـ)، **تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)**، م12، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، (1990).

الزَّبيدي، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني (ت 1205هـ)، **تاج العروس من جواهر القاموس**، م40، (تحقيق مجموعة من المحققين)، الإسكندرية: دار الهداية.

الزمخشري، ابو القاسم محمود بن عمر، **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، ط3، م4، (تحقيق عبدالرزاق المهدي)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد (ت 538هـ)، **أساس البلاغة**، ط1، م2، (تحقيق محمد باسل)، دار الكتب العلمية، بيروت، (1998).

زين الدين محمد، عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي زين العابدين الحدادي القاهري (ت 1031هـ)، **التوقيف على مهمات التعريف**، ط1، م1، عالم الكتب، القاهرة، (1990).

السامرائي. فاضل صالح، **معاني النحو**، الطبعة الخامسة، م2، دار الفكر للنشر، الاردن، (2011).

السامرائي، فاضل صالح (2013)، **بلاغة الكلمة في التعبير القرآني**، ط8، م1، عمان: دار عمار للنشر والتوزيع.

سيد قطب، ابراهيم حسين الشاربي (ت 1385هـ)، **في ظلال القران**، ط 17، م30، دار الشروق، بيروت - القاهرة، (1412هـ).

السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن بن ابي بكر(ت 911هـ)، **الإتقان في علوم القرآن**، م4، (تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (1974).

السيوطي، عبد الرحمن بن ابي بكر جلال الدين (ت 911هـ)، **الدر المنثور في التفسير بالمأثور**، م8، دار الفكر، بيروت.

الشعراوي، محمد متولي (ت 1418هـ)، **تفسير الشعراوي- الخواطر**، م20، مطابع أخبار اليوم، (1997).

الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار(ت 1393هـ)، **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، م7، دار الفكر للطباعة والنشر، لبنان (1995).

الشوكاني، محمد بن علي بن محمد(ت 1250هـ)، **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**، م5، بيروت: دار الفكر.

الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير(ت 310هـ)، **جامع البيان في تأويل القران**، ط1، م24، (تحقيق أحمد شاكر)، مؤسسة الرسالة، بيروت (2000).

طنطاوي، محمد سيد (ت 1431هـ)، **التفسير الوسيط للقرآن الكريم**، ط1، م15، دار النهضة، القاهرة، (1998).

العثيمين، محمد بن صالح بن محمد (ت 1421هـ)، **أصول في التفسير**، ط1، م1، (تحقيق قسم التحقيق بالمكتبة الإسلامية)، المكتبة الإسلامية، (1422هـ).

العسكري، أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سهيل (ت 395هـ)، **الفروق اللغوية**، م1، (تحقيق محمد ابراهيم سليم)، دار العلم والثقافة، القاهرة.

فخر الدين الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن (ت 606هـ)، **مفاتيح الغيب**، ط3، م32، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (1420هـ).

الفراهيدي، الخليل بن احمد بن عمرو بن تميم (ت 170هـ)، **كتاب العين**، ط1، م8، (تحقيق د.مهدي المخزومي و د. ابراهيم السامرائي)، دار ومكتبة الهلال، القاهرة.

الفيروز آبادي، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب (ت 817هـ)، **القاموس المحيط**، ط 8، م1، (تحقيق مكتب تحقيق التراث - مؤسسة الرسالة)، مؤسسة الرسالة، بيروت، (2005).

الفيروزآبادي، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب (ت 817هـ)، **كتاب بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز**، م6، (تحقيق محمد علي النجار)، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية- لجنة إحياء التراث الاسلامي.

الفيومي، أحمد بن محمد بن علي (ت 770هـ)، **المصباح المنير في غريب الشرح الكبير**، م1، المكتبة العلمية، بيروت.

القطان، مناع خليل (ت 1999م)، **مباحث في علوم القرآن**، ط2، م1، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، (1999).

قطب، سيد (ت 1966م)، **التصوير الفني في القرآن**، ط16، م1، دار الشروق، القاهرة، مصر، (2002).

القلقشندي، احمد بن علي (ت 821هـ)، **صبح الاعشى في صناعة الأنشاء**، ط1، م15، دار الفكر، دمشق، (1987).

الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي (ت 450هـ)، **تفسير الماوردي النكت والعيون**، م6، (السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

مجمع اللغة العربية (مصطفى، ابراهيم والزيات، احمد وعبد القادر، حماد والنجار، محمد)، **المعجم الوسيط**، دار الدعوة، الإسكندرية.

نجم، الدكتور محمد يوسف، **فن القصة**، ط7، م1، دار الثقافة، بيروت، (1979).

النسيابوري، الأمام ابو الحسين مسلم بن الحجاج، **صحيح مسلم بشرح النووي**، ط1، 9م، (تحقيق محمد عبد الباقي)، دار الكتب العلمية، بيروت، (1995).

الهاشمي، أحمد بن ابراهيم بن مصطفى(ت 1362هـ)، **جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب**، م2، (تحقيق لجنة من الجامعيين)، مؤسسة المعارف، بيروت.

ADMONISHING IN THE HOLY Q'URAN ASEMANTIC STUDY

By

Mohammad Ibn Dalhous Ali Al –Rwaili

Supervisor

Dr. Khalid Shoukri, Prof.

ABSTRACT

The current study addresses the implications of "taking cautionary lesson in the Holy Quran through studying the meaning relating to "taking cautionary lesson in the Holy Quran and its usage, where the term "cautionary lesson in the Holy Quran" has several meanings. Also, the current study addresses the approaches of the term "taking cautionary lesson" and its relating vocabularies, the extent to which these vocabularies are connected to this term, and extracting examples for such relation from the Quranic context. The current study also addresses the contexts that included "ordering people to take lessons" which came in the Holy Quran in four contexts: stories, verses of fighting and war, the verses of creation and cosmic signs. The current study has clarified the points of taking lessons in theses contexts and also mentioned examples. The researcher has divided the current study into two chapters:

Chapter (I) includes six topics addressing the implications of "taking a lesson" through explaining its concept, as this chapter has mentioned all the meanings applied by grammarians in defining this concept tracking the development of this concept whether the real meaning or metaphorical meaning. The remaining topics of this chapter have addressed the vocabularies connected to the term "taking lesson" through searching its implications in Arabic language, also searching its relation between this concept and its implications.

Chapter (II) has addressed the contextual study of the implication of the concept "taking a lesson". This came in four topics based on the contexts where the concept was mentioned, including: the stories of the Holy Quran, the verses of fighting and war, the comic signs, and the verses of Creation.

The current study has revealed a set of results and recommendations including the clarification of the meaning of the term "taking a lesson" and its use in the Holy Quran, and the relation between this concept and its implications, mentioning the areas where the Holy Quran ordered and advised us to "take a cautionary lesson" through the Quranic context.